وَعدُ غَرِيبَة

تأليف :

صفاء متولى

بطاقة الفهرسة

تأليف:

صفاء متولى

اسم الكتاب:

وَعدُ غَرِيبَة

الجيزة: دار فكرة للنشر والتوزيع
تدمك
القصص العربية
رقم الإيداع:
الطبعة الأولى: ٢٠٢٣
جميع الحقوق محفوظة للناشر
دارفكرة للنشر والتوزيع – عضوية اتحاد الناشرين المصريين
رقم: ٧١٣ – جمهورية مصر العربية
00201282410458 / 00201114444354
Fekra.publishing@yahoo.com

فريق العمل

المراجعة اللغوية: أ/
تنسيق وإخراج: أ/
الإشراف العام: أ/

إِهداءٌ

إلى طَيبة القلب، حُلوة المَعشر، رقيقة المشاعر..

إلى الأجمل.. أُمي..

لن أنساكِ أبدًا.

إلى سَندي وأماني بعد ربِّي..

إلى عائلتي (أبي، أخى، أختيَّ، أولادهما، حسن)

دُمتم نعمةً في حياتي.

إلى خُلاصة أصدقائي ورفقاء دَربي في الحياة: زهرة، رانيا..

دُمنا معًا..

أحبُّكم جميعًا.

سوبر بابا

أخذ يشهق ويرتعش بشدةٍ وهو يجلس على كرسيٍّ خشبيٍّ في الهواء الطَّلق، ويأخذ قضماتٍ متباعدةً من ذلك الساندويتش الصغير المحشو بفول بالزيت الحارِّ مُر الطَّعم، جرَّاء وفرة الليمون به. كان الساندويتش مُر كمرارة حياته، ولم يشعر به، فلم تقف عليه.

كانت الدُّموع تفيض من عينيه ملتهبةً حارةً كذلك الساندويتش الصَّغير الحجم، الكثيف الحَشو، وكان أنفُه يسيل أيضًا، ليتقابل كلٌّ من الدموع والمُخاط في نقطةٍ مُحددةٍ مركزها الفم؛ فيختلطان مع تلك القضماتِ الصغيرة المُتباعدة تحت طاحونة الأسنان والضُّروس، فلا يشعر بأيِّ طَعم منها، كانت قِطع الطعام المُفتتة داخل فمه تقع منه على ملابسه وهو غير آبهٍ بها، وقد أحكم الحُزن والبُكاء قيودهما عليه؛ ليعتصرا قلبه الدامي المُفتت كتلك القَضمات الصغيرة في فمه.

كان حزينًا على وضعه، يبكي نفسه وضَعفه وذُله وقِلة حيلته وهَوانه على الحياة، تلك الحياة القاسية التي بخلَتْ عليه بأن تتمَّ فرحته، وأبت إلَّا أنْ تقصم ظَهره، فجعلته يتنازل مُجبرًا عن إنسانيته ليتحوَّل إلى آلةٍ لجلب المال، ذلك المال الذي كان مُشكلة حياته منذ أن وعى على هذه الحياة القاسية، التي لم يكفِها

قسوتُها عليه، بل امتدَّت إلى مَن يحبُّ، وهو العاجز الخائر القُوى الضعيف البُنيان الفاقد للحَنان.

كانت الحياة قد سَلبت الكثير والكثير من طاقتِه وكذا بُنيانه، فبات هزيلًا متعبًا طوال الوقت، كانت قد قرَّرت أن تَتداعى عليه منذ نعومة أظافره كما تَتداعى الأكَلةُ على قَصعتِها، فلم تمنحه طفولةً سعيدةً ولا شبابًا هادئًا.

كانت كلُّ حروبه مع الحياة.. تلك الحروب التي كان من الصَّعب الانتصار فيها، وإن حدث أحيانًا فإنها تُباغته لتُثبت له أنها المتحكِّم الأول والأخير، صاحبة اليد العُليا.

كان ما زال طفلًا في العَقد الأول من عُمره حينما أصيب والده بمرضٍ عُضال أقعده الفراش لمدةٍ طويلةٍ، ممَّا اضطر والدته لتخرج إلى سوق العمل القاسي؛ فلم يكن معاش والده يكفيهم، تاركةً إياه -وهو أكبر أشقائه ذو التسعة أعوام- ليَرعى والده المريض وأشقاءه الصِّغار، وهو الذي كان يحتاج إلى الرِّعاية والحنان.

ظلَّ الحال هكذا حتى وفاة والده وهو على مشارف المرحلة الثانوية.. الأم تعمل، والابن يرعى، والأيام تسرق وتجري.. سرقَتْ طفولته، وسرقَتْ والده،

وسرقَتْ حنان والدته، والأهم من هذا أنها سرقَتْ منه الأمان، فأحالته إلى شخصٍ ناضجٍ قبل أوانه، وها هي الآن عادت لتسرق مرةً أخرى، كأنْ لم يكفِها السَّرقات السابقة التي جعلته يُدرك مبكرًا مدى قسوة الحياة، فلم يأمن لها أبدًا، بل إنه ظلَّ طوال الوقت متوجسًا خائفًا مترقبًا، لا يعرف من أين ستأتيه الضربة القادمة، ولا كيف ولا متى، وقد أتت لتعصف بتلك السنوات الستِّ الجميلة التي قَضاها بعد عَناءِ واحدٍ وثلاثين عامًا عجافًا مرهقة.

وكأنَّ الحياة أبت إلَّا أنْ تعطيه وقتًا مستقطعًا لتُباغته بالضربة القاصمة التي كان لا يعرف إذا ما كان سيتخطَّاها أَمْ سيظلُّ حبيسها لآخر العُمر؛ لتكتب له النهاية.. نهاية البؤس والمُعاناة والقسوة.

وضع الساندويتش جانبًا على ورقةٍ، وطفق يمسح دموعه بكُم جلبابه الأبيض المصفَّر المتهالك.. أخذ يمسحها، وأخذت تتساقط دون توقفٍ ودون إرادةٍ منه.

كان يشعر بالوَحدة الشديدة وبالبؤس القاتل، كان فاقدًا للأمل وهو في تلك البلدة الغريبة.. لا أهل ولا أصدقاء.. كان يُعاني مَرارة الغُربة عن وطنه الذي ترعرع فيه، يعاني مَرارة الفراق والحنين والشوق لعائلته، تلك العائلة التي بدأ في تأسيسها وهو في

السابعة والعشرين من عُمره، حينما رشَّحت له والدته فتاةً طيبةً ذاتَ أخلاقٍ حميدة وعائلة مُتواضعة ليتزوَّجها.

كان يعتبر زوجته مُكافأته بعد سنين التعب والجُهد، التي بدأت منذ نُعومة أظافره برعايته لوالده المريض وإخوته الصِّغار، واستكمالها بعَمله وهو في المرحلة الثانوية، بجانب تعليمه الذي انتهى منه بتخرُّجه مدرسًا للأطفال الصغار. تزوَّج تلك الفتاة وسعِد معها.

كانت طيبةً هادئةً خلوقةً حسنة المَعشر، هنِئَ معها أول عامٍ، وبعد ذلك بدأ القلقِ يدبُّ بداخلهما حينما لم يحدث حَمل، أرادا بشدةٍ طفلًا يؤنسهما ويضيف البهجة لحياتهما، ولكن لم يحدث؛ فاضطرا إلى طَرق أبواب الأطباء؛ ليضعا أيديهم على السبب. كانوا يخبرونهما أنه لا سبب مُعينًا، ولكنه القَدَر، ذلك القَدَر الذي أتعبه وأنهكه كثيرًا، والذي قنع أن السبيل الوحيد لمواجهته هو الاستسلام له، فمَن ذا الذي تمرَّد على قَدَره وانتصر عليه؟!

وبعد زياراتٍ كثيرةٍ للأطباء والكثير من الأدوية والتحاليل، قرَّرا أن يستسلما لقَدَرهما.. سينتظران ويَصبران.. علَّ الريح تأتي يومًا بما تشتهي السفن؛

فتُنهي انتظارًا، وتجمل صبرًا، وتجبر خاطرًا، وتمني نفسًا وتشبع توقًا.

وبعد ثلاث سنواتٍ من المُحاولات والصبر والشوق، جاء الحَدثُ السعيد على هيئة كائنٍ صغير الوجه، أصلع الرأس، بريء المَلامح، ضئيل الجسد، أبيض البَشرة، خفيف الوزن، ذي أنفٍ شامخٍ؛ فأسماه عليًّا.. فَرِحا به وفَرِحا معه.

راقباه وهو يكبر يومًا بعد يوم.. وهو يحبو، وهو يخطو أولى خُطواته، وهو ينطق أولى كلماتِه بابا.. ماما، وهو يرتدي مريوله الصغير الأزرق ليذهب أوَّل يوم إلى الروضة، حينها ذهبَا معه يوصلانه وثلاثتُهم في غاية السعادة. كانت سَعادة الأرض كلها لا تكفيهما بسببه. كان قد أضاءَ حياتهما وحوَّلها إلى جنةٍ على الأرض.. ولكنْ يا للأسف! فلا توجد جنةٌ على الأرض!

كان كلُّ شيء يسير على ما يُرام. كان الأب يعمل ليكفي بيته، والأم تُدير شؤون المنزل، وعليٌّ يلعب ويكبر. كانت حياة مثالية كما تمنَّاها دائمًا، حتى جاء ذلك اليوم الكئيب الحزين الذي غيَّر حياتهم جميعًا وقَلَبها رأسًا على عقب، حينما سقطَ عليٌّ مغشيًّا عليه وهو ينزف من أنفه.. حينها بدأت الحياة تُعيد نفسها مرة أخرى معه، ومعه هو بالذات..

فقد أخذ يتردَّد على عيادات الأطباء مع صغيره الوحيد، ويُجري له الكثير من الأشعة والتحاليل، وهو يدعو الله في سرِّه وعلانيته ألَّا يكون هناك شيءٌ خطير يستدعي القلق والخوف، ولكنْ هيهاتَ هيهاتَ؛ فقد أتت الريح هذه المرة بما لا تشتهيه السفن، وعَرَفا أن صغيرهما مصابٌ بمرض عُضال في دمه، سيحتاج لوقتٍ طويلٍ لعلاجه، والكثير الكثير من المال، وهو ما لا يملكه وما لم يملكه أبدًا، ولكن هذه المرة تبدَّلت الأدوار؛ فهو مَن يعمل بجدٍّ حتى تحوَّل إلى آلة لجلب المال، والأم جلست في المنزل تعتني بالصغيرِ وترعاه، والطفل المريض تارة طريح الفِراش، وتارة يلعب في المنزل أثناء تناوله العلاج غير آبهٍ بشيءٍ، وهو يظنُّ أنه مريضٌ مثل كل المرات السابقة وسيُشفى قريبًا، كما أنَّ وجود أبيه وأمه بجانبه وحوله يرعيانه، يمدُّه ويُشعِره بالأمان.

***

نظر حولَه وهو جالسٌ على المقعد، فوجد مدرسةً قريبةً يخرج منها الأطفال الصغار، وآباؤهم ينتظرونهم أمامها. أخذ يراقبهم بحسرةٍ وألمٍ وهو يتذكَّر حينما كان يذهب إلى مدرسة ابنه الصغير لأخذه وهو سعيدٌ.. وصغيره يخرج منها وهو يجري فرِحًا ناحية والده

ليحتضنه بشدةٍ ويقبّله، ويحمله وهو يسأله عن يومِه، ليُجيبه بكل براءةٍ وطفوليةٍ عن كل ما حدث في يومه القصير، والأب يُنصت بكل انتباهٍ لابنه الصغير وهو يمازحه، وصغيرُه يضحك بكل عَفويةٍ.. ليظلَّا هكذا حتى يصلا إلى المنزل.

كانت أجمل اللحظات تلك التي كان يرى فيها ابنه وهو يخرج من مَدرسته جريًا عليه ليحتضنه ويقبّله.. كانت بالنسبة له لحظة لا تُقدَّر بثمن.. لحظة يتوقف عندها الزَّمن.. لحظة تُخبره فيها الحياة أن بها الكثير من الأشياء الجميلة، وأجملها على الإطلاق هي صغيره الوحيد..

حتى جاء ذلك اليوم، يوم الفصل، الذي قرَّر فيه ماذا سيفعل بعد أن أضناه التفكير وأتعبه التردُّد، ففيه اتَّخذ قراره بالسفر خارجًا. اختار الغُربة في بلادٍ بعيدة عن زوجته وابنه وهما في أشدِّ الحاجة إليه، وهو في أشدِّ الحاجة إليهما.

كان ثلاثتهم يشدُّون من أزر بعضهم في تلك المِحنة الشديدة وتلك الأيام العصيبة.. كان ثلاثتهم يحتاجون إلى بعضهم؛ فكانوا يقوُّون بعضهم لمواجهة تلك الحرب المحسوسة، الصامتة، غير المرئية.. في ذلك اليوم خرج عليٌّ الصغير من المدرسة وهو يمشي

حزينًا منكسرًا، فرآه والده وقبَّله كعادته وحمله وهو يسأله راسمًا ضحكةً صافيةً على وجهه: ما بال صغيري حزينًا؟ فأمسك عليٌّ بأذنه الصغيرة ويده الأخرى تلتفُّ حول عُنق والده، وأجاب وهو ينظر إلى الأرض: صديقي في الفصل أخبرني اليوم أنني سوف أموت، فسألتُه ما معنى أني سأموت؟! فقال لي إني سوف أغمض عينيَّ وأنام، وسوف تضعونني تحت التراب في الظلام وحدي، وسوف تتركونني!

قال لي: سوف تختفي لأنكَ مريض، ولكني أخبرتُه أن هذا لن يحدث، وأنه يكذب، وسوف يُعاقب على كَذبه، وأن بابا لن يتركني أموت؛ فهو سيعالجني..

ونظر إلى والده وهو يسألُه: أليس كذلك يا بابا؟ ألم تُخبرني أني سوف أُشفى مثلما يحدث كلَّ مرة؟! بابا،هل كلام صديقي صحيح؟ هل سأموت وسوف تضعونني تحت التراب وحيدًا؟

نظر له والده وقد تجمَّعت الدموع في مُقلتيه، وأنصت إليه بعنايةٍ كعادته وهو يجيبه: نعم حبيبي، سوف تُشفى، وستصبح مثلَ بقية أصدقائك، وسوف تكبر معنا أنا وأمك، وربما تصبح طبيبًا لتعالجنا حينما نمرض.

- حقًّا بابا؟!

- نعم حبيبي، ألستُ أنا سوبر بابا.. مَن يفعل أي شيءٍ لمساعدة الناس، ويفعل كل شيءٍ لك؟!

فضحك عليٌّ وهو يجيب: نعم، أنت سوبر بابا، ولن تدعني أموت. أنت سوف تُنقذني مثلما أنقذتَ قطّتنا الصغيرة عندما دهستها السيارة؛ فذهبتَ بها إلى الطبيب، واعتنيتَ بها حتى أصبحت بخيرٍ.

- نعم، مثلما حدث مع القطَّة الصغيرة.

- أنا أحبُّك بابا كثيرًا. أنتَ سوبر بابا.

ضمَّه والده بشدةٍ، والصغير يلفُّ ذراعيه حول رقبته، ويضع رأسه على كتفه سعيدًا، وهو يقول له وقد سالت الدُّموع على خديه: وأنا أيضًا أحبكَ كثيرًا كثيرًا.

حدَّث نفسه في أثناء طريقهما إلى المنزل بأنه سوبر بابا. نعم، هو مَن يجب عليه إنقاذه مهما كلَّفه الأمر.

كان وقتها يعمل ليلَ نهارَ لتوفير مصاريف العلاج الكثيرة التي فوق طاقته.. نهارًا في مدرسته، وليلًا في وظائف أخرى متواضعة؛ فتارةً جرسون في مطعم،

وتارةً أخرى عامل في محطة وقود، ولكن حتى العمل ليلًا نهارًا لم يعُد كافيًا للوفاء بالتزامات المنزل وعلاج الصغير؛ فقرَّر حينها - وبما أنه سوبر بابا الذي يفعل المستحيل- أن يسافر للعمل خارجًا لتوفير المال لعلاج صغيره، وها هو الآن تجتمع عليه عدَّة آلام: ألم مرض ابنه الصغير، وألم الغُربة واشتياقه لعائلته ووطنه، وألم الضعف والهوان.

كان في نَظر ابنه الوحيد سوبر بابا، ذلك اللقبُ الذي أطلقه عليه ذاتَ يوم، عندما أحضر له لُعبة "سوبرمان"، فسأله صغيره مستفسرًا وهو يمسكه في يده: من هذا بابا؟ فوضعه على رِجليه وهو يُجيبه: إنه سوبرمان.

- مَن سوبرمان؟

- إنه بطلٌ خارق.

- ما معنى بطل خارق؟

ضحك الأب لأسئلة صغيره الكثيرة وأجاب: إنه شخصٌ يفعل أيَّ شيء لمُساعدة الآخرين.

نظر له عليٌّ الصغير وقال بكل براءةٍ: أها.. مثلكَ أنت بابا؛ فأنتَ تساعد جارتنا العجوز في شراء

وتركيب أنبوبة البوتاجاز، وتُساعد ماما في تصليح ما يخرب في المنزل، وتساعد أبناء الجيران في مُذاكرة دروسهم..

أنتَ مثله بطلٌ خارقٌ بابا. أنتَ سوبر بابا.

ضحك الأب بشدةٍ، وحضن ابنه بقوةٍ وهو يقول: نعم، أنا سوبر بابا.

والآن، جاء الدور لمساعدة ابنه.. لإنقاذه، لن يتركه يرحل.

سافر خارجًا تاركًا صغيره يعاني آلام المرض وفراق الوالد. كان الصغير يبكي بشدةٍ مُمسكًا بوالده، راجيًا منه ألَّا يتركه، فقطع له وعدًا بأنه سوف يعود سريعًا، وترك زوجته لتتحمَّل رعاية صغيرهما وحدَها.

في بداية سفره عمل كمدرسٍ خاصٍّ لطفل مُقعد، وظلَّ هكذا لمدة ثلاثة شهورٍ، ولكن لسوء الحظِّ، كان والد الطفل يُعاني من ضائقةٍ ماليةٍ؛ فكان يؤجِّل إعطاءه المال شهرًا بعد الآخر، ممَّا دفعه إلى تركه والبحث عن عمل آخر يدرُّ عليه المال الذي يحتاجه بشدةٍ.. وها هو ذا يجلس مكتوف اليدين، وحيدًا غريبًا شريدًا..لا وطنَ ولا عائلة.. يبكي حظَّه العاثر، وقسوة

الحياة عليه، حتى إنه اشترى بآخر نقودٍ معه ساندويتشًا يسدُّ به جوعه.

كان بكاؤه إعلانًا صريحًا لفشله الذريع في مواجهة الحياة، والأسوأ من هذا أنه كان مُحبطًا لأنه لم يستطع أن يكون "سوبر بابا" لوحيدِه فرحةِ حياته.

كلُّ ما كان يحتاجه في تلك الأثناء حضن زوجته، وضحكة ابنه البريئة؛ ليُخبراه بأن الحياة ما زالت بخيرٍ، وأن كل ذلك مجرَّد زوبعةٍ في فنجان، سَرعان ما ستنتهي وتمرُّ على خيرٍ. كان يحتاج إلى عطف أبٍ وحنان أمٍّ ودعم أخٍ. كان يرى الحياة أضيق ما تكون، ولا حيلةَ له فيها.

وفي أثناء جلوسه هكذا وبُكائه.. شعر بشيءٍ بين قدميه، فنظر فوجدها قطةً صغيرةً تُشبه قطة ابنه، وقد أخذت تتمسَّح في جلبابه، وهي تنظر له بعينين مدوَّرتين عسليتين، ثم تنظر إلى الساندويتش بجانبه؛ فأمسك به وأخذ يقطِّع لها لقيماتٍ صغيرةً ويعطيها لها لتأكلها بنهمٍ بلا توقف.

شعر بجوعها الشديد؛ لأنه كان جائعًا مثلها، وبعد أن انتهى الساندوتش عن آخره، عادت القطة مرةً أخرى تتمسَّح فيه وهو يبتسم لها، ثم حَملها ووضعها

على رِجله وهو يمسِّد عليها في رقةٍ، وهي مستسلمةٌ له، وظلَّ هكذا لفترةٍ قصيرةٍ من الزمن، هدَّأت من روعه فيها، وشعر بأن عائلته حوله ومعه.. ذكَّرته بأيامٍ جميلة لعب فيها مع ابنه الصغير بقطته الصغيرة، فنظر حوله وهو يواسي نفسه ويُمنيها بأن كل شيءٍ سيصبح بخيرٍ وعلى ما يُرام؛ فلن يخذله الله الرحيم الكريم.

مرَّ بكثير من مصاعب الحياة، وسيمرُّ من تلك أيضًا، وحينها دقَّ هاتفه، فنظر إليه فإذا به والد الطفل المُقعد.. فردَّ عليه ليفاجئه بأن أجره موجود ويريده أن يمرَّ عليه ليعطيه إياه، ولكنه اعتذر له بأنه لا يملك حتى أُجرة المواصلات للذَّهاب إليه، فأخذ والد الطفل عنوانه ليأتيه بالمال، وطلب منه أن يعود مرةً أخرى لتدريس ابنه؛ فقد انصلحت أعماله وسيدفع له أجره في ميعاده؛ ففرح الأب جدًّا، ووافق على الفور، وجلس منتظرًا وهو سعيدٌ لا يصدق؛ فقد انفرجت الدنيا قليلًا بعد ضائقتها الشديدة، وأخذ يشكر الله على جَميل صُنعه وهو يُلاعب القطة الصغيرة.

لـوتـو

احتضن طفله الصغير ذا الثلاثة أعوامٍ، والدُّموع تتساقط من عينيهما كالمطر الجارف، وصغيره يشهق بحُرقة، فاحتضنتهما الأم وهي تُراقب معهما كلبهم لوتو، الذي وقف على الشطِّ مبللًا يراقبهم بدوره وهو يئنُّ في صمت، وهم يبتعدون عنه في مركب جالسين وسطَ الكثير غيرهم من الناس.

كان يُراقبهم، وكان ثلاثتُهم يراقبونه، وأربعتُهم يشعرون بالألم الشديد على الفِراق، ذلك الفِراق الذي جاء بعد عشر سنينٍ؛ ليُشتت الجمع ويفرّق الأحبة، ويترك النار مشتعلة في قلوبهم جميعًا لفترةٍ كبيرةٍ من الزمنِ.. ذلك الفِراق الذي جاء ليترك لهم فقط ذكرياتٍ جميلة مؤلمة تساعد في تأجُّج النار واشتعالها دائمًا في قلوبهم.. ذلك الفِراق الذي لا يرحم كبيرًا ولا صغيرًا، ولا إنسانًا ولا حيوانًا؛ فالجميع يتألم منه على حسب درجة الحُب الذي يسكن القلوب والأفئدة.

راقبوا بعضهم وهم يبتعدون عن بعضهم، وكلٌّ منهم يتضاءل في عين الآخر مع بُعد المسافة، حتى أصبحوا نقطة لا تُذكر في ملكوت الله الواسع.

جلس الأب مكانه وهو يُكفكف دموعه ويحاول أن يلَمْلم شتات نفسه، وابنه يشهق في حضنه ويقول: لوتو.. لوتو..

اختفى لوتو أمام نظرهم، واسترجع ذكرياتهم معًا. كانا ملتصقين لمدة أحد عشر عامًا، منذ رحيل والدته وهو بعُمر الحادية عشرة.

كان صديقه الوفيَّ والمخلص، الذي ساعده للتغلُّب على أزمة الطفولة الكبيرة؛ فبعد وفاة والدته انتقل إلى منزل صديقة والدته المقرَّبة، والتي أخذته ليعيش معها، وهو الذي أصبح يتيم الأب والأم؛ فقد فَقَدَ والده عندما كان عُمره سنة واحدة فقط، وها هو ذا يفقد أمه، لتأخذه صديقتها لتُربيه كابنها، وهي الفاقدة للأمومة.

كان في بداية الأمر يرفض الكلام، ولا يتوقف عن البُكاء، رغم محاولات صديقة والدته المُستميتة لإخراجه من حُزنه، والعمل على تقبُّل القضاء، وبعد محاولاتٍ مُضنية لم تجد حلًا سوى أن تُحضر له كلبًا صغيرًا حديث الولادة؛ لعله يساعده على تخطِّي مِحنته القاسية، ويكون صديقًا مُخْلصًا ومخَلِّصًا له، وقد نجح الأمر، ففرح الصغير بالهَدية الصغيرة، وتجاوب معها، وأصبح لا يفترق عن لوتو، وأخذ يرعاه ويهتمُّ به، فالتهى به عن أحزانه، وأصبحا رفيقين ليلَ نهارَ، معروفين بين جميع أهل البلد، فأينما وُجد الصغير وُجد لوتو.

كانا يفهمان بعضهما من الحَركات والإيماءات ودونٍ كلام. كانت صديقة والدته التي أضحت أمه سعيدةً بالتقدُّم الكبير الذي حدث في حالة الصغير وساعدها على تربيته.

عاد من طريق ذكرياته على صوت طفله وهو يسأله بصوتٍ باكٍ: بابا، ألن نرى لوتو مرةً أخرى؟

فردَّ عليه بحنانٍ بالغ هازًّا رأسه بالإيجاب.

فعاود سؤاله مرةً أخرى: ماذا سيفعل من دوننا؟!

فأجاب الأب قائلًا: سيكون بخيرٍ. لا تقلق.

فقالت الأم: لقد مرَّ بالكثير من الأشياء مع والدكَ ومعكَ، وقد نجا.. وسينجو الآن أيضًا، وسيظل في قلوبنا دائمًا يا صغيري.. ووضعت يدها على قلبه واستكملت: هنا حيث ندفن الأحبة.

نظر إليها الطفل في صمتٍ، والدموع تنهمر من عينيه، وفيهما ألف كلمةٍ وكلمة.

وعاد الأب إلى بحور ذكرياته مرةً أخرى عند سماعه لحديث زوجته الشابَّة، فتذكَّر أول مرةٍ شاهد فيها لوتو وهو جروٌ صغير بنيُّ اللون، ينظر إليه بعينيه السوداوين في ضعفٍ واستكانة وخوف، فربَّت

على رأسه بحنانٍ وهو ينظر إلى صديقة أمه ويسألها – وكانت المرة الأولى التي يتحدَّث فيها منذ وفاة والدته، والمرة الأولى التي يجذب انتباهه شيءٌ منذ تلك اللحظة-:

- أين أمُّه؟

- ماتت.

كانت تلك إجابتها المُقتضَبة على سؤاله.. فحَزن بشدةٍ عليه، وهنا أخذه في حضنه، وأخذ يربّت عليه، وقد علم أنه يجمعهما شيءٌ واحد، وهو أنه لا أمَّ لديهما، فقرَّر حينها أن يصبح مثل أُمه ويهتمَّ به، فنظر إلى صديقة أمه وسألها مرة أخرى:

- هل يُمكنني الاحتفاظ به؟

- بالطبع، ولكن يجب أن تُطعمه وتهتمَّ به وتحبَّه، فهل تستطيع فِعل ذلك؟

ففرح وقبَّل الجرو الصغير وهو يقول: نعم سأفعل، سأصبح بدلًا من أمه التي ماتت.

ضحكت حينها وضمَّته إليها وقالت له: مثلما أنا الآن بدلًا من أمك التي ماتت، فأنا أيضًا أحبُّك وسأهتمُّ بك.

مرَّت الأيام والطفل الصغير يهتمُّ بالجرو، وصديقة الوالدة تهتمُّ بالطفل، ولم يعد الطفل يشعر بيُتم الأم؛ فقد التهى عن حُزنه وتناساه في خضم الاهتمام بـ "لوتو".. فهو يُطعمه ويسقيه ويجعله ينام بجانبه على السَّرير، حتى صار كلبًا كبيرًا.

تذكَّر الأب كم مرةً أسعده، وكم مرةً ساعده، بل كم مرةً أنقذه، فلم يكن صديقه الوفيَّ ومصدر سعادته فقط، بل كان حاميه أيضًا ومنقذه. فكم من مرةٍ أعطاه لوتو الحياة، إمَّا عن طريق إسعاده، وإمَّا عن طريق إنقاذه! وكم من مرةٍ ساعده على تحمُّل مشقة الحياة وأعبائها!

تذكَّر عندما كان عُمره ثلاثة عشر عامًا ودخل في مشاجرةٍ مع أقرانه الذين تكاثروا عليه، كيف أنه وقف معه في مُواجهتهم يدافع عنه بنباحه الشديد حتى أخافهم.

تذكَّر تلك المرة التي ابتعد فيها عن قريته الصغيرة وهو يتجوَّل معه حتى أصبح على حافة هضبة صغيرة، فانزلقت قدمه على الصخور فسقط مغشيًّا عليه، وبدأ رأسه ينزف بشدةٍ، فما كان من لوتو

إلَّا أنْ عاد مسرعًا إلى أمه ليُخبرها بالخَطب الجَلل الذي حدث مع ابنها، والتي ما إن رأته بمُفرده حتى علمت أن هناك خطبًا ما مع ابنها، فتبعته مسرعة، لتجد الصغير غارقًا في بِركة دمٍ صغيرة، فحملته وأسرعت به إلى طبيب القرية الذي أسعفه، وحينها علمت الأم والابن أن لوتو ليس مجرد حيوان يربيانه، ولكنه فردٌ مهمٌّ من أسرتهم الصغيرة السعيدة.

كان يشقى لشقائهم، ويسعد لسعادتهم. كان الصديقَ الذي لا يخون ولا يغدر. كان فردًا من الأسرة لا يترك ولا يخذل.

- بابا، احكِ لي مرةً أخرى كيف أن لوتو أنقذني من قبل.

بهذه الجملة البريئة انتشله طفلُه الصغير من ذكرياته مرةً أخرى، فابتسم وهو يقول: ولكني حكيتها لكَ العديد من المرَّات.

أصرَّ الطفل وقال:

- ولكني أريد أن أسمعها مرةً أخرى.

- حسنًا، حينما كنتَ صغيرًا تبلغ من العُمر ستة أشهر، كانت أمك مشغولةً في عمل الخُبز لنا وتركتك على

الأرض، فجاء ثعبانٌ يسعى إليك دون أن تنتبه هي، فرآه لوتو فهجم عليه وقتله دون أي ترددٍ وهو ينبح بشدةٍ، ولما انتبهت أمك لما يحدث، أسرعت وحملتك، وقد أرعبتها الصَّدمة. لقد أنقذ لوتو حياتكَ ومنحنا أنا وأمك حياةً أخرى.

فابتسم الطفل في براءةٍ وهو يقول في زهو: لوتو شجاعٌ لا يخاف. أتمنى أن أصبح شجاعًا مثله لا أخاف عندما أكبر، فأخذته أمه من حضن أبيه لتضمَّه وهي تقول: ستصبح شجاعًا مثله، بل أفضل منه.

نظر كلاهما إلى ابنهما الصغير الذي سعِد لمجرَّد ذِكر سيرة لوتو؛ فقد كان قادرًا على إسعادهم حتى وهو بعيدٌ عنهم.

نظرت الزوجة إلى زوجها في حنانٍ بالغ وهي تقول: هل تتذكَّر أيام خِطبتنا؟ كنتَ دائمًا تأتي إلى منزلنا معه.

ضحك الأب وهو يقول:

- كنتِ تغارين منه؛ لأني أحبُّه بشدةٍ، ولأننا لا نفترق.

- لم أكن أغار منه.

- بل كنتِ تفعلين. كنتِ تُثيرين المشاكل معي بسببه.

- لم أكن أفعل. كان مجرَّد كلب.

- لم يكن كأيِّ كلبٍ.. كان لوتو.

فهزَّت رأسها بالموافقة وهي تقول مؤيدةً: نعم، كان مميزًا.. كان لوتو. هل تتذكَّر كيف أمسك بذلك اللصِّ الذي حاول سرقة منزلنا يوم زفافنا؟

ضحك الزوج وهو يقول: وهل هذا شيءٌ يُنسى؟ لقد فَزع اللص من شدة نباحه وهجومه عليه، قبل أن أمسكه مع أهل القرية، كان اللصُّ حينها يصرخ ويقول: أبعدوا هذا الوحش عني.. أنقذوني.. فضحكا معًا حتى ترقرقت الدُّموع في عينيهما وقالت الزوجة في أسًى: نعم، كان لوتو. ليس كلبًا عاديًّا مَن هو قادرٌ على إسعادنا حتى وهو بعيدٌ عنا.

سالت الدُّموع من عيني الزوج وهو يقول في ألم: لا أعلم لماذا كُتب عليَّ الفِراق؟! لقد فارقتُ كل مَن أحببتهم.. كل مَن تعلقتُ بهم.. كل مَن كانوا مصدر قوتي وأماني، ثم نظر إلى بُقعة الأرض البعيدة التي تتضاءل أمامهم وأكمل: وها أنا ذا الآن أفارق أرضي وموطني وموطن أجدادي وتربة أبي وأمي، ومعها أفارق لوتو.

أصبحت أخاف. أخاف من الحُب.. أخاف من التعلُّق.. أخاف من غدٍ لا أعلم ماذا يحمل.. بتُّ أحمل الكثير والكثير من الخوف. لم أعد أشعر بالأمان في الحياة.

أمسكَتْ بيده بشدةٍ وهي تقول مطمئنةً: لن تفارق أحدًا آخر. أنا وابنك لن نتركك أبدًا. سنكون معًا دائمًا ثلاثتنا. سنذهب الآن إلى أرضٍ جديدة، وننشئ مستقرًّا جديدًا لأحفادنا، سيكون بالنسبة لهم أرض أجدادهم، وسواء هذه الأرض التي فارقتَها أو تلك الأرض التي سنستقرُّ بها، فكلتاهما جزءٌ من وطننا.

هذه المرة تُفارق من أجل مصلحة الوطن، وداخل الوطن لن يوجد سوى الشعور بالأمان والانتماء. سيتبدَّل خوفك اطمئنانًا، وَلْتدع الغد لخالقه.. فلا تخَفْ.

نظر إليها ثم قال وهو يمسح دموعه: هل تظنّينه أوفَى منَّا؟ فقد قفز من القارب ورفض الرَّحيل معنا ليظلَّ في الأرض التي نشأ فيها! هزَّت رأسها نفيًا ثم قالت: كلٌّ على قدر عقله، فلا مَجال للمقارنة بيننا. لوتو حيوانٌ لا يعي ولا يعرف سوى مَن حوله وبقُربه، فوفاؤه كان لأرضٍ تربَّى ونشأ عليها، أمَّا نحن فأوفياء لوطنٍ نستنشق نسيمه، ونعيش في أمنه، ونأكل من نعمه. لقد تخلّينا عن الجزء من أجل الكل؛ فكلٌّ كان

وفيًّا بطريقته، وسوف يذكر التاريخ دائمًا قصة وفائنا وتضحيتنا. هزَّ رأسه مقتنعًا وقال: نعم، وفاؤنا سيُسطَّر تاريخًا، ويبني مستقبلًا.

لا أحدَ يَنتصرُ على الحَياةِ

جلسَ تحت الشمس صغيرًا هزيلًا مُمسكًا في يده قطعة كرتونٍ صغيرةٍ.. يحرّكها يمينًا ويسارًا ليجلب بها الهواء لنفسه، في محاولةٍ منه لكسر قَيْظ الصيف الذي جعله يتصبَّب عرقًا، وأمامه كومةٌ متوسطةٌ من الليمون موضوعة على قفصٍ خشبيٍّ صغيرٍ، وهو ينادي عليها بأعلى صوته حينًا، وحينًا آخر يجلس صامتًا ليستريح قليلًا بعد أن بُحَّ صوتُه.

كانت تلك وظيفته التي امتهنها منذ عامين مَضَيا على الرغم من صِغر سِنه الذي لم يتعدَّ الاثني عشر عامًا. كان يذهب إلى المدرسة مثل بقية زملائه الذين في سِنه، وفي العُطلات والإجازات يذهب إلى السوق، ليخلع ثوب التلميذ المُجتهد ويرتدي ثوب التَّاجر الصبور.

كان لديه حُلم، وكانَ هذا هو طريقه الوحيد لتحقيقه. وافق على التخلِّي عن طفولته في مُقابل تحقيق حُلمه الكبير الصغير.. كان كبيرًا عليه وصغيرًا على الحياة، تلك الحياة الخادعة التي تصغر أمامها الأحلام ولكن تصعب تحقيقها، فتقاومُنا في أحلامنا حتى تسلبها منَّا، ما لم نستطع خِداعها بالصبر أحيانًا والتجاهُل أحيانًا أخرى لنسرقها منها.

كان في نهاية يومه الشاقِّ يعود إلى منزله ويُحصي ربح يومه جرَّاء تِجارته الصغيرة، فيضع المال أمامه، وحصَّالته الصغيرة بجانبه، ويشرع في عدِّ النقود، وبعد الانتهاء يضعها في الحصَّالة ويُغلقها، ثم يضعها على المنضدة الخشبية الصغيرة المُقابلة لسريره، وينام وهو ينظر إليها، والرِّضا يملأ قلبه الصغير البريء، والسرور يطغى على رُوحه الطاهرة، فها هو ذا استطاع أن يجد طريقًا إلى حُلمه، ربَّما كان طريقًا طويلًا وشاقًّا على مَن في مثل عُمره، ولكنه موجودٌ ومتاح، فلِمَ لا يرضى ويحمد؟! كان هدفه أن يجمع ألفي جنيهٍ أو أكثر قليلًا ليستطيع أن يحقق حُلمه.

فقط ألفا جنيهٍ.. أفنى من عُمره سنتين حتى الآن ليجمعها، وقد قارب على الوصول إليها، وأصبح على مشارف حُلمه. كان هدفه ألفي جنيهٍ، وحُلمه درَّاجة، وبالأهداف تتحقق الأحلام.

كان يذهب إلى المدرسة يوميًّا سيرًا على الأقدام لمسافة كيلومترٍ في حرِّ الصيف وبرد الشتاء، وهو يحمل الحقيبة المُمتلئة بالكتب على ظَهره، فكان يقطع الطريق أحيانًا ببطءٍ وتلكؤٍ، وأحيانًا يجلس بعد عدد من الأمتار ليستريح قليلًا.

كان يرى الأطفال أمثاله وهم يجيئون ويذهبون بالدرَّاجات، وكان يشعر بالغيرة منهم، وهم الذين لا يشعرون بالتعب مثلَه.

كان في بادئِ الأمر يشعر بالتعب والإرهاق الشديدين؛ فيعود إلى المنزل بعد اليوم الدراسيّ متعبًا ومُنهكًا وخائر القوى، فيُلقي بنفسه على سريره لينام، فيستيقظ صباح اليوم التالي ليُكرر ما حدث بالأمس واليوم الذي قبلَه وما سيحدث في اليوم الذي يليه، حتى اعتاد التعب والإرهاق والمشقَّة، التي أصبحت ملازمةً له، وأصبح متعايشًا معها، فبات لا يلتفت إليها حتى أضحى لا يشعر بها.

أصبحت جزءًا من حياته القصيرة، وهنا تكمُن مصيبة الاعتياد في تحويل السَّيئ إلى شيءٍ عاديّ، والغريب إلى مألوف. الاعتياد يولِد اللامبالاة، ويُذهب بالشعور، ويمنع لذَّة الحياة.. ظلَّ هكذا حتى جاء ذلك اليوم الذي دعاه فيه أحد زملائه ليركب معه على درَّاجته ليوصله إلى منزله.. كان وقتها في الصفِّ الرابع الابتدائي، وهنا عَلم ما يفوته من راحةٍ ودَعة، فوصل إلى منزله، وألقى حقيبته، وألقى بنفسه على السرير وبدأ الحُلم.. الحُلم بدراجةٍ صغيرة يقودها ذهابًا وإيابًا إلى المدرسة، تقيه التعب وتوفِّر عليه الوقت.

لن يضطر للخروج مبكرًا من المنزل صباحًا ليلحق بطابور الصباح، ولن يصل متأخرًا بعد الظهر إلى المنزل، وسيؤدِّي واجباته المدرسية كلها، وسيستذكر دروسه جيدًا.. هو يريد دراجة، بل يحتاج دراجةً وبشدةٍ.

وهنا نهض من السرير، وذهب مسرعًا للبحث عن أمه التي وجدها في المطبخ تحضِّر طعام الغداء، ووقف بجانبها وأخذ يراقب قليلًا ما تفعل ثم قال:

- ماما، أريد درَّاجة.

- لِمَ؟

- أريد أن أذهب بها إلى المدرسة. ستوفِّر عليَّ المجهود والوقت. المدرسة بعيدةٌ، وأنا أتعب.

نظرت إليه والدتُه وأمسكته من كتفيه وقالت له:

- صغيري، لو أننا نملك المال لشرائها لاشتريناها لكَ منذ زمنٍ.

- ولكني أحتاجها بشدةٍ.

- ولكننا لا نملكُ المال الآن.

- هل هي غالية الثَّمن؟

- أغلى من مَقدرتنا.

حَزن الطفل ونظر إلىٍ الأرض وهو مُنكسر الخاطر، فحَزنت عليه الأم ورقَّت لحاله. كانت تعلم أن المدرسة بعيدةٌ بالفعل، ولكنْ ما باليد حيلة، فهذهٍ هي ظروفهم، وهذا هو وضعهم؛ فاستطردت قائلةً له: ولكنْ هناك شيءٌ أعدك به، حينما آخذ ميراثٍ أبى من أخى، سيكون لديَّ مال، وسأشتري لكَ دراجةً جميلة.

- أريدها زرقاء.

- سنشتريها زرقاء.

- حقًّا ماما؟

- حقًّا بنيَّ.

سعِد الطفل كثيرًا، وذهب فرحًا إلى غرفته وهو يحلُم باليوم الذي سيشتري فيه الدرَّاجة الزرقاء، والأم تراقبه في أسًى، وتتنهد بعمقٍ وهي تتمنى كثيرًا في قَراراة نفسها أن يأتي ذلك اليوم الذي تفي فيه بذلك الوعد الصغير.. ذلك اليوم الذي ستأخذ فيه ميراثها من أخيها الذي استولى عليه ظلمًا وعدوانًا تحت مسمَّى

"البنات لا ترث"، "لن أدع مال أبى يذهب إلى رجلٍ غريب".

كان ميراثها من والدها فدَّانين وبضعة آلافٍ لا تتعدَّى الثلاثون ألفًا، ولكنها كانت بالنسبة لها كافيةً لتحقيق أحلامها أيضًا؛ فهي الأخرى كان لديها حُلم.

كانت تحلُم بأن تجدِّد منزلها البالي المتواضع، فتشتري مطبخًا جديدًا، وتنجد المراتب، وتدهن الحوائط، وتشتري غرفة أطفالٍ جميلة، وتضع بضعة آلافٍ في البنك؛ لتنعم بالأمان من تقلُّبات الدهر.. والآن أُضيفَ حلمٌ آخر، وهو شراء دراجةٍ لطفلها، وربما ألعاب لطفلها الآخر الذي لم يتعدَّ الثلاثة أعوام. عرفت دائمًا أنها لا يمكنها الاعتماد على زوجها في تحقيق أحلامها؛ لعلمها بظروفه المادِّية المتعثرة، وراتبه الصغير الذي بالكاد يكفيهم، فلم تكن لتحمِّله فوق طاقته.

أخذت تحلم ليلًا بما سيكون عندما تأخذ ميراثها من شقيقها، وترى نهارًا حال المنزل بعد التجديد، فتبتسم بينها وبين نفسها..

كانت لديها آمالٌ كبرى، ولكن آمالها وأحلامها كانت تتبعثر عند تذكُّرها لتعنُّت شقيقها، الذي يقول لها دائمًا: لا حقَّ لكِ عندي؛ فالبنات لا يرثون.

حاولت معه مرارًا وتكرارًا، ولكنها كانت تصطدم بحائط صدٍّ، ولكنها كانت لا تكلُّ ولا تملُّ من المطالبة بحقها، فلجأت إلى أشخاصٍ مقربين منه للتوسط بينهما ليعطيها ميراثها، ثم لجأت إلى التفاوض معه.. بأن يعطيها أيَّ شيءٍ؛ فإن لم يعطها حقَّها كاملًا فليعطها نصفه، ولكنْ في كل مرةٍ كان الرفض هو الجواب.. ولكنها ظلَّت تحلم وتتأمل وتتخيل وتبني قصورًا في الهواء ومنه، وظلَّ طفلها يسألها يوميًّا: هل أخذت النقود؟ متى ستأخذها؟ متى ستشتري له الدرَّاجة؟.. حتى سئم وتوقف عن السؤال والأمل. أدرك بمرور الوقت والأيام أن أمه ليست هي السبيل لشراء الدرَّاجة، فلجأ إلى والده يوما وقال له:

- بابا، أريد دراجة. أريد أن أذهب بها إلى المدرسة؛ لأن الطريق طويل، وأنا أتعب..

فنظر له والده للحظاتٍ ثم أمسكه وأجلسه بجانبه على الكنبة وهو يقول له بتردُّد: في الوقت الحاليّ لا أستطيع شراء دراجةٍ لك، ولكنْ قريبًا سأحصل على مكافأةٍ من عملي، وحينها سأشتري لكَ دراجة جميلة.

نظر إليه الطفل في تردُّد وخوف.. خوف من أن يصدِّقه.. خوف من أن يأمل.. خوف من أن يبني أحلامًا فتُهدم.. فصمت ولم يقل شيئًا، فأكمل والده قائلًا -وقد رأى في عين ابنه عدم التصديق-: وعدٍ أعدك بأنه عندما يتوفَّر لديَّ المال فسأشتري لكَ دراجة.

وهنا تذكَّر وعد أُمه. تذكَّر انتظاره. تذكَّر مرور الأيام دون جدوى، وسؤاله الدَّائم لها، وردها الدَّائم بأنها ليس لديها المال بعد.. فطأطأ رأسه وقال بحزنٍ: حسنًا! ونهض حزينًا، فحضنه والده وقد آلمه عدم تصديق ابنه له، فقال له: أنا والدك الذي يحبُّك، ويجب أن تصدِّقني.. سأشتري لكَ دراجة.

ابتسم الطفل وهو يقول مبتهجًا، وقد أعطاه حضن والدُه الأمان: هيه.. هيه، بابا سيشتري لي درَّاجة، وذهب فرِحًا إلى جدَّته في حجرتها وهو يقول لها بصوتٍ عالٍ: جدتي.. جدتي.. بابا سيشتري لي درَّاجة.. سمعه والدُه من مكانه، وابتسم مع نفسه لسعادة ابنه، وتنفَّس بعمقٍ وهو يقول لنفسه: نعم، سأشتري لك دراجة. فقط أحصل على المكافأة وسأشتري الدرَّاجة، وأسدِّد الديون المُتراكمة، وأشتري ملابس جديدة لكم جميعًا.. فقط أحصل على المكافأة.

كان قد وعده مديره في العمل بإعطائه مكافأةً كبيرةً إذا ما نجح في اجتذاب عملاء جُدد للشركة، وها هو يعمل بأقصى جُهده ليجذب عملاء جدداً ليحصل على المكافأة، ومع كل عميلٍ جديدٍ كان يُخبر نفسه: "هذه المرَّة سيعطيني المكافأة"، ولكن مديره في كل مرةٍ كان يخبره: "ليس بعد.. لم تحقِّق الهدف بعد"، ولم يكن يعرف ما هو الهدف، ولم يُخبره، ولكنه لم يتوقف عن المُحاولة والأمل وبناء الأحلام؛ فلم يكن لديه سبيلٌ آخر.. فهو مسؤول عن أسرةٍ مكونةٍ من زوجة وطفلين وأمٍّ مريضة.. يرعاها ويهتمُّ بها ويشتري لها الأدويةَ. كان يعمل ليلَ نهارَ ليوفِّر لهم حياةً كريمة، ولكنَّ الحياة كانت أكبر من قُدراته، وأعظم من طموحاته.

كان لديه حُلم، وكان يسعى لتحقيقه بكلِّ ما أوتي من مجهودٍ واجتهاد، ولكنَّ الأيام كانت تمرُّ.. والأحلام كانت تتبدَّد لدى الطفل الصغير الذي دأب على سؤال نفسه: هل أصبح معه مالٌ ليشتري الدرَّاجة أم لا؟ هل جاء اليوم الذي سيشتري فيه الدرَّاجة أم لا؟ وبقي الحال على ما هو عليه.. لا مال.. لا حُلم؛ فلا درَّاجة.

وعى الطفل وأدرك أنه لا أمل في والده، كما هو حال أُمه من قبله، وحينها قرَّر -وهو الطفل الصغير ذو العشرة أعوام- أنه لن يتخلَّى عن حُلمه الكبير الصغير.. سيشتري الدرَّاجة من ماله الخاصّ.. سيعمل مثل والده ويحقِّق حلمه، فبدأ يبيع الليمون في السوق، ومرَّت السنون، وأصبح لديه ما يكفي من المال لشراء الدرَّاجة.

كان يوميًّا على مدار سنتين يذهب إلى محل بيع الدرَّاجات ليشاهدها، وكان يمنِّي نفسه بواحدةٍ زرقاء ذات إطاراتٍ عريضة.. أصبحت هاجسه ليلَ نهارَ، فكلما تعب أو كلَّ وملَّ تذكَّرها، فيشجع نفسه ويحثها على الصبر والمواظبة، حتى وصل إلى آخر يوم عملٍ له.. فأخيرًا جمع المبلغ وأصبح لديه ما يكفي من مالٍ لتحقيق حُلم طفولته البريء، فباع كل ما لديه من ليمون، وذهب مسرعًا للمنزل، وأحصى كل المال الذي اكتسبه، وتأكَّد من تمامه واكتماله، وبات ليلته سعيدًا يحلُم بالدرَّاجة الزرقاء.

في الصباح، نهض وهو سعيدٌ مرِح يُحصي الساعات والدقائق والثواني؛ فاليوم هو اليوم الموعود.. يوم تحقيق حُلمه.. اليوم سيشتري الدرَّاجة،

فارتدى ملابسه، وأحصى نقوده للمرَّة الأخيرة، واضعًا إيَّاها في حقيبته المدرسية، وذهب مسرعًا للمدرسة منتظرًا انتهاء اليوم الدراسيّ على أحرِّ من الجمر؛ ليذهب بعده لشراء الدراجة، ففي فصله كان ينظر إلى السَّبورة فيشاهدها، وينظر من النافذة التي بجانب مقعده فيجدها.. كان يراها في كل مكانٍ وطوال الوقت.. لم تكن خيالًا أو حلمًا، بل حقيقةً ستتحقَّق بعد بضع سويعات.

وبعد انتهاء اليوم الدراسيّ، قطع الطريق مسرعًا وهو على نَفَسٍ واحد إلى محل الدراجات، وهو يمنّي نفسه ويحلُم بما سيفعله بعد شراء الدراجة.. سيعود بها إلى المنزل؛ ليريهم انتصاره الصغير على الحياة. سيذهب بها إلى المدرسة.. وسوف يذهب إلى السوق مع أُمه ليحمل مشترياتها عليها.. سوف يخرج مبكرًا قليلًا ليوصل والده إلى العمل يوميًّا؛ فيريحه من المِشوار.. سوف يذهب لشراء أدوية جدَّته بها.. وعندما يكبر أخوه سوف يُركبه خلفه عند ذهابهما معًا إلى المدرسة.. سوف يفعل الكثير والكثير من الأشياء بتلك الدرَّاجة، سيتعامل معها كأنها صديقه الأعز.. لا بل ابنه الصغير؛ فهي أولى ممتلكاته وأول أحلامه التي بدأت منذ عامين، وأخيرًا سيحصل على دراجةٍ مثل الكثير من أقرانه.

عندما وصل إلى المحلّ نظر إلى واجهته الزجاجية فرحًا.. فها هي تقبع هناك في انتظاره، وهذه المرَّة لن يشاهدها ويرحل، بل سيدخل ويشتريها بحُرِّ ماله.

خطا أولى خُطواته داخل المحل بكل ثقةٍ وزهوٍ بنفسه، وهو يتأملها من الداخل لا من واجهةٍ زجاجية، وحينما رآه البائع سأله بهدوءٍ وبأدب جمٍّ: ماذا تريد؟

فأجابه بطفوليةٍ حاول أن يُضفي عليها ثقة الرجال وهو يشير ناحية الدرَّاجة: أريد هذه الدراجة الزرقاء، فابتسم الرجل وسأله:

- وهل تملك ثَمنها؟

- نعم.

وأنزل حقيبته من على ظهره فاتحًا إيَّاها وهو مبتسمٌ سعيد قائلًا: معي النقود.. هنا. نظر داخل الجيب الذي وضعها فيه صباحًا فلم يجدها، ونظر في غيره فلم يجدها، وهو مذهول، وقد تحوَّل القلق إلى خوفٍ مع مرور الدقائق القليلة التي امتدَّت إلى دهر طويل، ثم أخذ يُفرغ محتويات الحقيبة على الأرض وهو يقول في صوتٍ أقرب إلى البكاء: لقد وضعتُها صباحًا هنا في الحقيبة.. أنا متأكد، ونظر إلى البائع الذي كان ينظر إليه في ارتيابٍ، وقد بدأت الدموع تملأ عينيه قائلًا

بصوتٍ أقرب إلى النحيب: معي النقود، أنا لا أكذب.. وضعتُها هنا في الحقيبة..

وبينما هو يبحث، إذ به يجد فتقًا في حقيبته المُهترئة كافيًا لأن تقع منه النقود التي استغرق عامين من طفولته لكي يجمعها، على أمل تحقيق حُلمه، وهنا صُدم وهبط على ركبتيه وهو يبكي بشدةٍ، غير مصدِّق أن مجهود السنين وحُلم الطفولة قد ضاع هباءً في لحظة حقيقة، ودُمر على صخرة واقع، وحينها أدرك أول درسٍ في حياته: "لا أحدَ ينتصر على الحياة".

لعب عِيال

وقف متكئًا بذراعه على الحائط بجانب المرآة، وهو ينظر إلى موضع قدمه ويمسح دموعًا فارَّة من عينيه، ثم نظر إلى نفسه فيها، وأمسك بشاش عمامته وبدأ بلفِّه على رأسه، وتأمَّل نفسه لدقائق معدودةٍ، ثم ذهب إلى سريره وجلس عليه ونزع العمامة وألقى بها بعيدًا، وأمسك بحذائه ثم ألقاه هو الآخر، وظلَّ هكذا لمدةٍ من الزمن، ودموعه تسيل في صمتٍ وهو يُكفكِفها بكفيه، ثم ما لبث أن تمالك نفسه ووقف وهو يُخبرها بأنَّ ما يفعله هو عين الصواب.. هو الحلُّ الوحيد ولا حلَّ غيره سوى الدَّمار والخراب، وهذا ما عكف على الامتناع عنه طيلةَ حياته، وسيُكمل هكذا لآخر يومٍ في عُمره الذي لم يعد يتبقى منه الكثير، وهو الذي بلغ منه السبعين.

عند تذكُّره هذا وقف بشموخٍ معتدًّا بنفسه.. نعم، سيفعل ما يتوجَّب عليه. سيُنقذ عائلته وعشيرته.

ونظر إلى الساعة المعلَّقة على الحائط، وهزَّ رأسه في حزن مُحدثًا نفسه: "لقد حان الوقت"، وألقى بنظرةٍ أخيرةٍ على المرآة، ورفع أنفه عاليًا وهو يقول: "هذا هو الصواب".

خرج من غُرفته في هدوءٍ، فاصطدم بنظرات ابنه وابنته وأحفاده، الذين هالهم جميعًا ما رأوا، ونظروا إليه ثم نظر بعضهم إلى بعضٍ في حُزن وانكسار، فتحوَّل انكسارهم إليه؛ فأسقط عينيه في الأرض للحظاتٍ، ثم ما لبث أن رفعهما ونظر إلى الجميع في قوةٍ وهو يقول: ما بالكم؟! إنه يومٌ وسيمرُّ.

جَرَتْ عليه ابنتُه وتعلَّقت برقبته وهي تبكي بشدةٍ، فحَضنها بدوره وهو يربّت على ظهرها في ودٍّ وحنان، ثم جرى عليه ابنه أيضًا وسقط عند قدميه العاريتين وهو يبكي ويقول: سامحني يا أبي.. سامحني، أنا السَّبب.. كل ما يحدث الآن أنا السبب فيه، فأبعد ابنته عنه وانحنى يُمسك بابنه ويرفعه وهو يقول: لم يكن شيءٌ مقصود، وما حدث قد حدث ولا يُمكننا تغيير الواقع، فهو الشيء الحقيقي، وإذا لم نستطع تغييره فلْنتقبَّله ونحاول أن نجمِّله، وأن نرمِّمه، عسى أن يعود كما كان وكما اعتدنا.

- أبي، لا تخرج. لا تذهب. لا أستطيع أن أراكَ تفعل هذا، فَلْتلغي كلَّ شيء وَلْيحدث ما يحدث.

فأجابه في ثباتٍ وقوة: لا واللهِ، لا أفعل.. لقد أعطيتُ كلمةً ووعدًا، وكلمة الرجال هي شرفُهم.

- أبي، إذا خرجتَ من هذا الباب فسنعيشِ مُنكسي الرؤوس باقي عُمرنا. لن تقوم لنا قائمة مرةً أخرى.

- إذا لم أخرج من هذا الباب فستكون هناك بحورٌ من الدِّماء، ولن أسمح بهذا.

- فليكن ما يكون، ولكنَّنا سنعيش بكرامتنا وكبريائنا.

- بل سنعيش بخوفنا وتوجُّسنا. ربما لا تفهم ما أفعل الآن، ولكن مستقبلًا ستعي أهمية ما أفعل.

نحن المُخطئون وندفع الثَّمن، وإذا لم أخرج الآن فسيدفع الكثير من الأبرياء ممَّن لا ذنب لهم الثَّمن، وفي النهاية سيكون هناك خياران لا ثالث لهما: إمَّا الفَناء، وإمَّا ما سأفعل الآن، ولكن بعد فوات الأوان، فلنحقنِ الدِّماء، ونفعل ما هو محتوم الآن، ولْنطوِ صفحةً سوداء وننساها.

- أبي، أرجوك.

- يا بُني، لا يوجد حلٌّ آخر، فَلْتبتعد عن طريقي؛ فالجميع ينتظر.

ابتعد الابن عن الطريق وهو مطأطئٌ رأسه والدُّموع تسيل من عينيه، فصاحت ابنته:

ولكنْ هذا ظُلم. أنتَ لم تفعل شيئًا.. أنتَ شيخٌ كبير.

- أنا كبير العائلة، وأنا راعيها، وأنا المسؤول.

قال كلمته هذه وتوجَّه إلى باب المنزل، وجميع العيون الباكية تُراقبه، ومدَّ يده ليُمسك بمقبض الباب بيدٍ مرتعشةٍ متردِّدة، ثم حسم أمره وهو يبتلع ريقه بصعوبةٍ، وقلبه ينبض بعنف في صدره صارخًا.. طالبًا الرحمة.. الرحمة من موقف لا يُحسد عليه.. الرحمة من كبرياء ستُهدر.. الرحمة من كرامةٍ ستُهان.. الرحمة من يومٍ ربما لن يمرَّ.

كان يرجوه أن يرأف به وبعُمره، ولكن كان صوتُ عقله أقوى وأعلى، فطغى على نداءِ قلبه واستغاثته. كان صوت عَقله يُخبره أنه على الطَّريق الصحيح، بل هو الطريق الأوحد الذي لا مفر منه في النهاية. كان يُخبره بأنه كبير قومه وهو خادمهم، فَلْيتشجع ولا يخف ولا يسمح بأيِّ شيء أن يُثني عَزمه أو يثبِّطه، وهنا أدار مقبض البابِ وفَتَحه وهو يضع يده الأخرى على قلبه، ثم ألقى نظرةً أخيرة على أبنائه وأحفاده، ثم عزم أمره وخرج.

وهنا صرخت ابنته ووقعَتْ على الأرض وهي تبكي وتقول: لن يحتمل أبي هذا، لن يحتمل.. أبي أبي.

كيف يحدث هذا؟! لماذا يحدث هذا؟! كيف يحدث هذا لكبيرِ قومه، الرجل الكريم الحكيم الذي لم يردَّ أحدًا أبدًا. لماذا؟! لماذا؟! هذا ظلمٌ.

فأجابها شقيقها وهو يصيح باكيًا: أنا السبب.. أنا السبب. بسبب ابني يحدث له ذلك. أبي يدفع ثمن خطأ غيره.

وأسرع نحو الباب وهو يقول: سأذهب خلف أبي، لن أدَعَه وحدَه. سأكون خلفه حتى وإن لم أفعل شيئًا.

***

خرج الشيخ الكبير إلى الشارع التُّرابي، ونظر حوله فوجد الناس قد تجمعوا أمام منازلهم وعلى أسطُحها، وهم مستعدُّون لمشاهدة ما سيحدث، فأحسَّ بجفاف ريقه، وشعر بالرعشة تسري في جميع جَسده، حتى كاد أن يسقط مغشيًّا عليه من هول الموقف، والجميع ينظر إليه وهو على هذه الهيئة المُزرية المعيبة.. كان حافي القدمين بلا عمامةٍ، والأدهى أنه يرتدي جلبابه بالمقلوب.. كانت هذه هي شروط الصُّلح.. أن يذهب سيرًا على أقدامه العارية في وضح

النهار من منزله وحتى منزل القتيل؛ ليقدِّم اعتذاره وهو يرتدي جلبابه بالمقلوب وبلا عمامةٍ، ولكن من غير فودة؛ لأنه كان حادثًا غير مقصود.

كان هذا هو الحُكم الذي أصدره عليه مَن تدخَّلوا في محاولات الصلح بين عائلته وعائلة القتيل، ولم يجد مفرًّا من الموافقة على هذه الشروط الصعبة حقنًا لدماء عائلته.

لقد عَلم أنه بموافقته على هذه الشروط القاسية سيخسر كرامته وكبرياءه إلى الأبد، ولن تقوم له قائمةٌ بعد ذلك، ولكنْ لا مفرَّ، فما لن يقبله الآن سيقبله أخيرًا، ولكنْ بعد أن تكون دماءٌ كثيرة قد أُريقت، وخسر الكثيرُ من الأبرياء أرواحهم، وترمَّل الكثير من الزوجات، وتيتَّم الكثير من الأبناء، وبعد أن يكون الكثير من الأمهات قد فقدوا أبناءهن.

لا، لن يسمح بذلك أبدًا. سيوافق على الشروط القاسية، وسيُضحي بحياته إن لزم الأمر، في مقابل أن يُنهي هذا الثأر ويقضي عليه قبل أن يبدأ. هذا هو واجبُه نحو عائلته وعشيرته.

كان هذا الموقف يحدث لأوَّل مرةٍ في القرية الصغيرة الهادئة، فكان حَدثَها التاريخيَّ الفريد من نوعه، الحَدَث الذي سيتناولونه لسنواتٍ وسنواتٍ وهم يتذكَّرونه في ذهولٍ واندهاشٍ، وربما تعظيم وإجلال، أو حسرةٍ وحُزن، أو شماتةٍ.. كلٌّ حَسَب تفكيره وظنه وتحليله لما حَدَث.

بدأ الشيخ الكبير في السَّير بحالته هذه، وجميع العيون تتطلَّع إليه وتراقبه. كان الصمت والهدوء هما سيدا الموقف؛ فقد شابَ الجو هدوءٌ غريب غير مُعتادٍ في قريةٍ مملوءة بالحياة والحركة ذهابًا وإيابًا. كان هدوءًا يملؤه الكثير من الضَّجيج، وصمتًا يملؤه الكثير من الكلام.. حتى إن الحيوانات الموجودة في المنازل والتي كان صوتها يملأ القرية قد صمتَتْ، وكأنها شعرت بما يحدث وبهَوْل الموقف، فها هو أحد أكابر القرية يُمثَّل به في ذُل وهوانٍ.. في موقف لا يُصدقه عقل ولا يستوعبه منطقٌ سوى منطق العُقلاء العارفين.. مَن يفهمون أن سيد القوم خادمهم.

ومع كل خُطوة يخطوها.. كان يشعر بالكلام الصامت ويحسُّ بالهدوء الصاخب من حوله. كان يمشي وعيناه في الأرض تارةً من فَرْط الخزي والمَهانة، وتارةً أخرى رافعًا رأسه لأعلى وهو يُخبر

نفسه أنه في موقفٍ شُجاع لحماية عشيرته، ولحفظ الهدوء والسلام في بلدته، وهذا موقف يُحسب له لمَن يعقل ويفهم.

كان حائرًا متوجسًا أيهما يفعل: أيرفع رأسه أم يحنيها؟ أينظر إلى أعين الناس التي تُراقبه أم يهرب منها؟ كان مقتنعًا بما يفعل، قانعًا أنه على صوابٍ، ولكنه كان حائرًا.. كيف يفعله؟ كان يشعر بأن خُطواته ثقيلة، وأن رِجليه قد تخونانه في أيّ لحظة، فيقع أرضًا مثل طفلٍ صغيرٍ يتعلم المشي حديثًا. كان يتمنّى في قَرارة نفسه أن يسقط ميتًا أثناء سَيْره؛ فتنتهي تلك المأساة، وينتهي معها كلُّ شيء، وتعود الحياة سريعًا لما كانت عليه وكأن شيئًا لم يكن، فمتى توقفت الحياة على أحدٍ أو توقفت على شيءٍ؟ فهي تمرُّ شِئنا أم أبينا.

كان مع كلِّ منزل يمرُّ أمامه يحدِّث نفسه عن أصحابه وعن حالهم وشعورهم نحوه.. فها هو يمرُّ أمام منزل ابن عمّه الذي لَزِم المنزل معارضًا لما يحدث ويراه خاطئًا، وهو الذي باح بهذا علنًا معارضًا قَراراه. وفي المنزل المُقابل له جاره المحبُّ الذي يثق تمامًا أنه حزين جدًّا عليه وعلى ما يحدث له.

وها هو منزل ذلك الرَّجل الذي أصدر يومًا حُكمًا ضدَّه، عندما جاءه أجيرٌ شاكيًا قسوتَه وسوء معاملته وعدم إعطائه أُجرته اليومية.. لا بد أنه شامت الآن فيه. وهذا منزل أحد مَعارفه وقد ساعده يومًا ما في دفع الديون التي عليه؛ فحمل جَميله فوق رأسه.. لا بد أنه حزينٌ عليه.

أخذ يفكِّر هكذا مع كل خُطوة وحركة.

كان يفكِّر في كل شخصٍ وما قد يقوله عليه أو يفكِّر به، وهو يستشعر تجمُّع الأطفال الصغار وراءه وهم يمشون خلفه مُتهامسين، وخُطوات أقدامهم تفضحهم، وفكَّر في نفسه أن أطفال القرية مَن كانوا يهابونه ولا يتجرؤون أن يمرُّوا من أمامه، ها هم الآن يمشون خلفه فيما يُشبه الزفَّة التي تقوم بزفِّ عروسين.

هانت عليه نفسه كثيرًا، وكادت الدموع تفرُّ من عينيه، ولكنه سارع إلى تمالُك نفسه، وذكَّر نفسه بهدفه من كل هذا، وأكمل سَيْره وهو على هذه الحالة..تارةً يشعر بالانكسار والإهانة والذُّل، وتارةً أخرى يمشي بكبرياءٍ، وتارةً أخرى يُحدث نفسه بمشاعر مَن حوله تجاهه.. تارةً يطأطئ رأسه، وتارةً ينظر إلى عيون الناس حوله.

كان يصبِّر نفسه دائمًا بحديثه إليها: أنه يدرأ الدَّم الذي بدأه حفيده المندفع المتهوّر بقتله أحد المراهقين في سِنِّه من عائلة أخرى أثناء لَعبهم وسَمرهم المُعتاد، والذي انتهى دون قصد بنهايةٍ مأساوية لم يُحمد عقباها.

ظلَّ الشيخ الكبير هكذا يتأرجح بين الظنون والاعتقادات والنَّظرات والهمسات، حتى وصل إلى منزل أهل القتيل ليقدِّم الاعتذار ويطلب الصفح والسماح عمَّا بَدَر من حفيده نيابةً عن كل عائلته، أمام حشدٍ كبير من الناس .. هم أهل القتيل وعائلته وشيوخٌ ورجال وشباب من عائلاتٍ أخرى قد دُعيت لحضور الصُّلح ليكونوا شهداء عليه، بجانب أهل البلدة كلها الذين رأوا الشيخ الكبير بهيئته هذه وهو يتَّجه صوب منزل أهل القتيل.

وبعد أن انتهى الصُّلح وعاد الجميع إلى منازلهم، عاد الشيخ الكبير إلى منزله ونام على سريره وهو مُنكسر ذليلٌ مهان، وقد مرَّ اليوم الطويل الشاقُّ الخالد في ذاكرة الجميع، ولكنْ لم يأتِ الصباح أبدًا، ليكتب نهاية لَعب العيال.

كلُّ الطُّرقِ مفتوحةٌ

"كلُّ الطرُق مفتوحةٌ"..

ابتسمَتْ بسخريةٍ وهي تسمع هذه الجملة المُعتادة، والتي دأبت على سَماعها منذ بدأت تتردَّد على هذه السيدة وذاك المنزل، فقالت لها في حنقٍ: تقولين لي هذا الكلام منذ ثلاثة أشهر، وأنا لا أرى طرقًا مفتوحة، ولا أدرى أصلًا عن أي طُرق تتحدثين! وفكَّرت في نفسها أن كل شيءٍ مُغلق أمامها ومعقَّد، حتى إنه زاد تعقيدًا بعد زياراتها المُتكررة لها، والتي كانت يومًا بعد يوم، وشعرت بالمرارة تسري بداخلها، وبغصَّة تقف في حلْقها وهي تقول لنفسها: حتى الطَّريق إلى المنزل بات شاقًا ومُجهدًا بعد أن بدأت فيه أعمال الحفر لتركيب وتصليح الصَّرف الصحي..

فعنِ أي طُرق تتحدث، وأبسط الطرق وأيسرها بات شاقًا؟! الطريق المعلوم بات صعبًا، فما بال الطرُق المجهولة؟!

تمَلْملتْ في جلستها قائلةً: أخبريني شيئًا آخر. فتشبَّثت السيدة بأطراف أصابعها جيدًا، وأمعنت النظر في كفِّها بدقةٍ وهي تقرِّبها إلى عينيها أكثر وتتفحصها وكأنها تتفحَّص ثمرة تين مشكوكًا في أمرها ما إذا كان

قد غَزاها الدُّود فأفسدها أم ما زالت صالحةً للأكل، ثم قالت بكل ثقةٍ: هناك نصرة لكِ بعد نقطتينٍ..
وهنا ابتسمت في فرحةٍ وهي تقول مؤكدةً على كلامها:
- حقًّا؟
- نعم.
- ولكنْ ما معنى نقطتين؟
- ربما يومان أو أسبوعان أو شهران أو سنتانِ.
فزمَّت شفتيها محبطةً وهي تقول متعجبةً: ماذا؟! سنتين! هل سأنتظر سنتين أخريين؟ لم أعُد أطيق صبرًا.
صمتَت السيدة ولم تقُل شيئًا، ثم استطردت الفتاة في حديثها قائلةً: حسنًا! ما باليد حيلة، فليكن إذًا ما هو مقدَّر، ولكن هل معنى هذا أنه سيعود؟

وهنا أخذتها الذِّكريات وحملتها إلى الخلف قبل خمسة أشهر، حينما كانت سعيدةً. كلُّ شيء بدأ حينها..

***

كانت فتاةً عادية تحيا حياة عادية، تتسابق فيها الأيام وتتلاحق كالمُعتاد، ولا شيءَ جديدًا بها، وكانت راضيةً غير ساخطةٍ، فما أجمل الأيام حينما تمرُّ دون أن تضر عن طريق أيِّ أحداث سيئة تُنغصها! إنها

نعمة كبيرةٌ من الله تستحق الشكر؛ فغيرها تمرُّ أيامه ببطءٍ وقسوة، أما هي فأيامها كانت سريعةً مُنتظمة.

كانت تهبُ حياتها لعملها ودراستها.. هما الشيئان اللذان كانت تحبُّهما بشدةٍ، فطالما كانت دؤوبة في عملها، مجتهدةً في دراستها، وكانت قد قررت أن تستكمل دراساتها العُليا، فدائمًا ما كانت مُحبة للعِلم، آملةً أن تعطي له، وهي على ثقةٍ تامةٍ بأنه سيُعطيها أيضًا؛ "فالعِلم عندما تعطيه يعطيك".. كان هذا هو شعارها الذي تُردده أمام الكثيرين ممَّن يقولون لها: وآخرتها؟! إلى متى ستظلين تدرُسين؟! ستموتين وأنتِ ممسكةٌ بكتابك، وستُدفنين معه!

كانت تضحك على سُخريتهم وتجيب: لا أمانع إطلاقًا في هذا. سأكتب في وصيتي أن أُدفن مع كتبي التي أعشقها.

كانت الكتب هي عشقها ومتنفَّسها حين تضغط عليها الحياة حينًا. كانت مهربَها وملجأها حين كانت تسمع شِجارات والدها مع والدتها خلف الباب في حُجرتهما. لم يكن زواجًا سعيدًا بمعنى الكلمة، فكلٌّ منهما كانت له عقليته وتفكيره المختلف عن الآخر، ولكن -وحمدًا لله- لم يرفع والدها أبدًا يده على والدتها أو على أيِّ أحد من أخواتها.

كان رجلًا محترمًا متعلمًا ذا خُلق، وكانت والدتها لا تقلُّ عنه أخلاقًا واحترامًا وعلمًا، كانا متكافئين في كل شيءٍ.. اجتماعيًّا وعلميًّا وسلوكيًّا، ولكنهما مختلفان في الطِّباع، كان والدها صبورًا ووالدتها متعجلة.. أرادت أن تُنجب أولادها جميعًا في أسرع وقتٍ، حتى إنها لم تأخذ فترة راحة بينهم، فكانت النتيجة هي مرض هَشاشة العِظام.. وأراد هو أن يكوّن نفسه أولًا ليضمن لهم جميعًا حياة كريمة. كانت متعجلة الثَّراء، فأجبرته أن يسافر للخارج ليجني المزيد من المال، أمَّا هو فكان يرى أن أموال الدنيا كلها لا تساوي لحظة يكون فيها بعيدًا عن عائلته. كانت تحبُّ الخروج كثيرًا، وكان يُحب المكوث بالمنزل.

كانت تحبُّ الشتاء، وكان يُحب الصيف. ومع ذلك، فقد ربَّوها هي وأخواتها الثلاث تربيةً سويةً؛ فقد حرص والداها على أن يبعدوهنَّ تمامًا عن أيِّ خلاف يدور بينهما.

كانوا أحيانًا يسخرون منها ويقولون: اتركي الدراسة.. متى ستتزوجين؟! قطار الزواج سيتخطاكِ. كانت تضحك كعادتها دائمًا وتجيب: سألحق به في المحطة التالية.

لم يكن يشغلها أمر الزواج؛ فهي مؤمنةٌ أنه رزق له وقته المحدَّد، ولن يأخذ رزقها غيرُها، كما أنها رأت كيف كان زواج والديها.. حتى جاء ذلك اليوم وطَرق بابها خاطب، كان قد رآها في عملها عدةَ مرات، ذلك العمل الذي كان يمثِّل كِيانها وحُريتها واستقلالها وذاتها، فسأل عنها وتقدَّم لطلب يدها.

في بداية الأمر كان هذا شيئًا مُعتادًا في حياتها، فهي تتعامل مع الجمهور في عملها، ولطالما تقدَّم لها خُطّاب ممَّن يرونها هناك، فكانوا أحيانًا يتحدثون معها مباشرةً، أو يتحدثون إلى أحد زملائها، أو يذهبون للحديث مع والدها، وكانت تفضِّل الخيار الثالث..

إذ كان يعطيها الثقة والأمان أكثر، ويُعفيها من الحَرج عند الرَّفض؛ فوالدها كان هو المسؤول. تتذكَّر يومها وهي تجلس معه في حُجرة الجلوس وهما يتبادلان أطراف الحديث، في مُحاولة للتعرُّف على بعضهما.

جذبها منذ الوهلة الأولى ذوقه ودَماثة أخلاقه، وبعد ذلك انبهرت بثقافته التي تيقَّنت منها بعد ثلاث مراتٍ متكررة من المُقابلات في منزلها، لتجد نفسها تقول: "نعم".

تمَّت الخطبة سريعًا، وكانت سعيدةً باختيارها كما كان هو أيضًا كذلك، و"لكن" -وكم تكره هذه الكلمة المُقتضبة التي لا تأتي إلا بما هو سيئ.. لتُبعثر أحلامًا وتهدم آمالًا وتنثر فوضى- ودون أيِّ سابق مُبررات وجدته يفسخ الخطبة دون أسبابٍ وجيهة، غير أنه يتمنَّى لها السعادة مع غيره؛ فهي تستحقها حتمًا، وهو الخاسر حتمًا.

هالها ما حدث. لم تكن أبدًا فتاةً متسرعة أو ضعيفةً أو تنساق وراء قَلبها، أو هكذا كان يُهيأ لها، فهي لم تمرَّ باختبارات القلب من قبل.. كان هذا أول اختباراتها، وممَّا آلت إليه الأمور فإنها رسبت وبكلِّ جَدارة. كانت تشعر بالتِّيه بعد أن اخترقت سِهام الحُب قلبها، ثم تركتها بقلبٍ نازف وعقل مشتَّت.

كانت تُخبر نفسها أحيانًا بأن ما حدث هو الخير، فهذا أفضل من أن يحدث بعد الزَّواج، وهي التي لا تريد زواجًا تعيسًا مجهدًا للأعصاب، تشقى فيه باقي عُمرها، وأن هذه هي إرادة الربِّ التي فيها الخير دائمًا.

كانت تشعر حينها بأنها بخير، وأنها راضية، ولكن كان هذا الشعور مؤقتًا مثل مُسكِّن الألم، فعند انتهاء وقته يفترسها الألم مرةً أخرى ليجعلَها بلا حولٍ ولا قوة، وأحيانًا أخرى كان عقلها ينفجر إلى أشلاءٍ مُتناثرة وهو يتساءل: ما الذي حدث؟! لماذا حدث هذا؟! بالتأكيد أنها أخطأت في شيءٍ ما، وإلَّا فلماذا تركها فجأةً وهما اللذان كانا يُخطِّطان لمستقبلهما معًا، ويبنيان عُش أحلامهما. "بالتأكيد أنا المُخطئة"..

كانت هي الجملة التي تتردَّد في تفكيرها دائمًا. كانت تشعر بالذنب من لا شيءَ ومن كلِّ شيءٍ تجاه نفسها وتجاه عائلتها التي فرحَتْ بخطبتها، وكانت هي أول فرحتهم، وخصوصًا والدتها المتعجِّلة التي لطالما انتظرت هذا اليوم؛ لتتخلص من هَمِّ واحدةٍ من بناتها وتفرح بها.

***

– لا أعلم.

كانت هذه هي الكلمة التي أرجعَتْها إلى أرض الواقع، فنظرت إلى السيدة وسألتها: ألا يظهر شيءٌ من كفِّ يدي؟!

فهزت السيدة رأسها بالنفي.

- فَلْنجرب الزيت، فربَّما يظهر شيءٌ، هذا ما آتي من أجله لمدة ثلاثة شهورٍ.
- كما تريدين. سأُحضر طبق الزيت.

راقبتها وهي تنهض ذاهبةً في طريقها لتُحضر الزيت، فربَّما تتضح الرؤية أكثر ويتجسَّد على سطحه الغيب فيهدأ بالها.

تذكرت أوَّل مرةٍ دخلت فيها ذلك المنزل، كانت غير مقتنعةٍ بفكرة قراءة الكفِّ، فأيِ كفٍّ هذا الذي سيعلم الغيب؟ ولكنها أُقنعت بأن مرة واحدة لا ضير منها، ثم أقنعت نفسها بأنها سوف تستغفر الله على فَعلتها، وربما تُخرِج صدقةً وتصلي صلاة توبةٍ تكفيرًا عن ذنبها، راجيةً رحمة ربها الغفور الرحيم.

حينما اقتربت من المنزل أول مرةٍ كانت متردِّدة.. تُقدم رِجلًا وتؤخِّر الأخرى.. متوجسةً خائفةً من غضب الله. كان منزلًا صغيرًا وسط منازل أخرى تُماثله في الحجم في منطقةٍ شعبية مُكتظَّة، على عكس منطقتها الرَّاقية الهادئة التي تعيش بها، كان لونُه من الخارج أصفر قابضًا للنفس جارحًا للرُّوح منفرًّا للعين، أشعرَها بالإعياء من أول نظرةٍ.

كان منخفضًا عن الأرض.. يجب أن تنزل درجتين لتصلَ إلى بابه الصغير.. أشعرَها وكأنها تهبط إلى قبر. وقفت أمامه وقد رفعت كفَّ يدها مضمومةً وهي مترددّة ما بين أن تطرُق الباب أو أن تعود أدراجها، وأخذت تنظر حولها لتتأكد من أن أحدًا لا يراها.

كانت تشعر وكأنها ترتكب فِعلًا مشينًا يجب أن تختبئ لفِعله خشيةَ كلامِ الناسِ الذين لا يعرفونها بتلك المنطقة الشعبية المكتظّة. تملّكها شعورٍ بأنها مجرمة على وشك ارتكاب جُرمها.. وفجاةً فُتح الباب من الداخل ليطلَّ منه طفلٌ صغير، ما إن رآهما حتى دعاهما للدخول وقادهما إلى غرفةٍ صغيرة ذات أثاثٍ بسيط متواضع مكوَّن من كنبتين وكرسيٍّ يكسوها قماش رخيص، وتستقرُّ في المنتصف منضدةٌ خشبية صغيرة لا غِطاء عليها، ثم تركهما وذهب في طريقه مرةً أخرى.

كانت رائحة المنزل كريهةً، والغرفة خانقةً، لا نافذة فيها، ذات ضوءٍ أصفر كئيب. كانتا تسمعان صوت الفراخ والحمام والبطِّ، ومن هنا عرفتا مصدر تلك الرائحة الكريهة التي كانت تملأ الأرجاء، فالواضح أن هذا المنزل الصغير به عُش صغير لتربية الطيور المنزلية، لتشارك أصحاب المنزل معيشتهم، على أن

يدفعوا ثَمن الإقامة من لحمها وبيضها، وياله من ثمنٍ كبير لإقامة بخسة!

وفجاةً دخلت عليهما سيدةٌ ضئيلة نحيفة الوجه قصيرة القامة، ترتدى جلبابًا أخضر فاتحًا نظيفًا، وتغطي رأسها بوشاحٍ صغير منقوش.

كانت قوة جَسدها -على نَحالته- وخُطواتها الثابتة وقامتها المفرودة توحي بأنها في الأربعينيات من عُمرها، ولكن تلك الأخاديد التي حُفرت في وجهها توحي بأنها في أواخر الستينيات من عُمرها، أمَّا عن صوتها الرفيع الهادئ فيوحي بأنها في الثلاثين من عُمرها.

كانت سيدة يصعُب تحديد عُمرها.. فهي سيدة بعُمر مختلط! رحَّبت بهما ما إن رأتهما، وبالأخصِّ بصديقتها، وهي تسألها عن أحوالها وأحوال والدتها. كان واضحًا سابق المعرفة بينهما. وكانت في كل مرةٍ يذهبان إليها تخيِّرهما ما بين طُرق رؤية الغيب؛ فهناك الكفُّ بخمسة جنيهات، وهناك الماءُ بعشرة جنيهات، وهناك الزيت بخمسة عشر جنيهًا.

يا للمهزلة! فلمعرفة الغيب طرقٌ وأدوات وتسعيرة، ويا لها من أسعار رخيصةٍ لفتح مستقبلٍ

والتنبُّؤ به! ويا له من مستقبلٍ رخيصٍ بَخس! ذلك المستقبل الذي يؤرِّق الجميع ويُقلق مضاجعهم .. ذلك المستقبل الغامض المُبهم الذي يخافه الجميع ولا يستطيعون أن يأمنوا غَدره، ولا يستطيعون التوقُّف عن الحُلم به والعمل له.. ذلك المستقبل المُبهم الذي يضيع سعادة اليوم ويُفسده. غريب أمر ابن آدم؛ يخاف ويقلق حِيال شيءٍ لا وجود له، وينسى ويتجاهل الموجود!

في بداية الأمر اختارت الكفَّ، لا لرخص ثَمنه ولكنْ لقناعتها بأن خُطوط يدها لن تكذب ولن تخون، وستبوح لها بالمستور و"المستخبي" بكلِّ تفاصيله، على عكس الماء والزيت اللذين ربَّما يُخطئان، فكيف ليدها أن تخونها؟! ومع ذلك وفي بادئ الأمر لم يستطع عقلُها أن يصدق أو يقتنع بأن هناك مَن يُمكنه معرفة الغيب، حتى مع محاولات صديقتها الناجحة في إقناعها بذلك، تلك الصديقة المقرَّبة جدًّا لها، والتي استغلَّت حالتها تلك لتُقنعها بالذَّهاب معها إلى قارئة كفٍّ لتُخبرها بما سيحدث في مستقبلها، لعلها يرتاح قلبُها ويهدأ عقلُها، حتى بعد أن أخبرتها تلك السيدة بما سيحدث في مُستقبلها القريب، خرجت من منزلها وهي تسخر ممَّا قالت وسمعت، حتى حدثت المُفاجأة؛ فقد تحقَّق بعض ممَّا قالته، فتوفيت إحدى صديقاتها،

ومَرِض والدها، وأصبح زائرًا لعيادات الأطباء، ورسب شقيقها في كُليته، فكان الحُزن رفيقها كما أخبرَتْها أول مرةٍ، ولكن لم يعُد خطيبها الراحل، ولم تعرف حتى الآن السبب في رحيله، فيا للسخرية!

كان كلُّ ما تحقَّق هي الكوارث والمصائب التي لا تريد أن تعرف عنها شيئًا، ومع ذلك وجدت نفسها تعود إليها مرةً أخرى وأخرى وأخرى لمُدة ثلاثة شهور ، على أملٍ أن تُخبرها بشيءٍ سعيدٍ أو مُفرح يريح بالها، ويبثّ فيها الشعور بالرضا الذي ضاع منها. وفي كل مرةٍ كانت تُخبرها دائمًا في أول كلِّ جلسة بأن جميع الطُّرق مفتوحة، وأن الحال سيتبدَّل ويتغير للأفضل، وأن الحياة ستحنو عليها وستُرضيها، ثم تخبرها بالكوارث التي ربَّما ستحدث لها، كفَقد عزيز وحُزنها عليه، أو مرض غالٍ، أو شِجار سينشأ بينها وبين أحدهم ليس من دَمها.. كانت أمورًا مبهمة غير واضحةٍ تجعل عَقلها يدور كعقارب الساعة على مَدار اليوم.

في بادئ الأمر كانت رافضةً ثم متردِّدة فآلفة ثم مُعتادة فمُدمنة. كانت تلك هي مراحل الإدمان التي مرَّت بها أثناء زياراتها المتكررة وجلساتها التي لم تكن تتعدَّى رُبع الساعة، والتي كانت أحيانًا تستعين

فيها بكل الطُّرق لتحصل على تفاصيل أكثر، فتحوَّلت تلك الزيارات إلى إدمان كإدمان الموادِّ المُخدرة والمواقع الإلكترونية السيئة وإدمان الطعام، ولكن هذا إدمان من نوع خاصٍّ؛ فهو لا يؤذي الجسد، ولكنه يُهلك الروح ويُتعب العقل من فَرط التفكير وانتظار المجهول المعلوم. كان إدمانًا مثل غيره يحتاج إلى قوة إرادةٍ وعزيمة للعلاج منه، ولم تكن تمتلك تلك القُوة أو لديها تلك العزيمة.

***

عادت مرةً أخرى من رحلة ذِكرياتها على صوت السيدة الرفيع تقول لها من جديدٍ وهي تنظر في طبق الزَّيت: كلُّ الطرق مفتوحة و.. وهنا قاطعَتْها وهي تقول لها في نفاد صبرٍ: دعينا من تلك المُقدمة المعتادة، أنا أريد جوابًا لسُؤالي: هل سيعود؟ هل تلك النصرة مُتعلقة به؟ فأمعنت السيدة النَّظر في الطبق ثم قالت بعد لحظاتٍ قليلة هي كلُّ ما تستغرقه في كشف غيبِ مستقبلٍ ممتدٍّ إلى ما لا يعلمه إلا الله: لا أعرف.

فتنهَّدت بعمقٍ واستسلمت لغَيبها الذي يرفض أن ينكشف، وأمسكت حقيبتها ووقفت وهمَّت بالانصراف وهي تجرُّ أذيال الخيبة، حينها أمسكتها صديقتُها من

ذِراعها وهي تحثُّها قائلة: انتظري قليلًا.. فَلْنر بالماء، ربَّما يظهر شيءٌ ما.

نظرَتْ إلى صديقتها ثم إلى يدها المُمسكة بذراعها وأبعدتها في رفقٍ وهي تقول في ضيق: لقد سئمتُ. لا فائدةَ من كلِّ هذا العبث.. لا فائدة.

- انتظري.. انتظري قليلًا. ألا تثقين بي؟! أنا صديقتكِ! وهنا نظرَتْ إلى عينيها وتذكَّرت تلك الجملة التي استطاعت بها أن تُقنعها بمجيئها إلى ذلك المنزل، وتجربتها لذلك العَبث، وتذكَّرت تحذيرات والديها اللذين اتَّفقا لأول مرةٍ على شيءٍ، وهو ألَّا تنساق دائمًا وراء صديقاتها، وأن تُعمل عقلها؛ فلا تثق بأحدٍ ثقةً عمياء؛ فلا علم لأحد بما تخفي النفوس وتحمل.. وهنا قالت لها بشكلٍ قاطع وحادٍّ: سأذهب ولن أعود مرةً أخرى.

أمسكَتْ حقيبتها وخرجَتْ من المنزل، بعد أن دفعت ثَمنَ الجلسة، آملةً بأن تَصدُق مع نفسها فلا تعود إليه مرةً أخرى؛ فشعرت بأشعة الشمس تلفحُ وجهها، فارتدَتْ نظارتها الشمسية السوداء ونظرت إليها ثم إلى الطُّرق المزدحمة وهي تهمس إلى نفسها في سخريةٍ: ها نحن نبدأ بالطُّرق المفتوحة.

وَعْدٌ غَرِيبَة

أمسكَتْ بهاتفها ونظرت له في ضجرٍ وهي تتصفَّحه، وأطلقت زفيرًا قويًّا وهي تُحدث نفسها وتقول: لقد تأخرت الرسالة. لماذا لم تردَّ على رسالتي حتى الآن؟ ألقت الهاتف جانبًا، وجذبت جهاز الكمبيوتر المحمول، وشرعت في قراءة ما كتبته وهي تعدِّل فيه بالحذف تارةً والإضافة تارةً أخرى. أخذت تُعيد قراءة ما كتبت مراتٍ عديدة وهي مندمجةٌ معه، حتى إنها تناست أمر الرسالة المُنتظرة.

كانت سعيدةً متحمسة، تكاد لا تصدِّق نفسها بأنها كتبت مثل هذه الأشياء الجميلة، فلقد أعادت إليها الكتابة ما فقدت من ثقةٍ جرَّاء ما حدث معها. كانت متنفَّسها عن غضبها، وشفاء لألمها، ومَنفذها إلى الحياة.

لم تكن الكتابة في الأصل فكرتها، لكنْ كانت فكرة تلك الغريبة التي عرفتها مصادفةً من إحدى قنوات "اليوتيوب"، حينما كانت في أسوأ حالاتها؛ حيث كتبت تعليقًا يائسًا على فيديو كان يعبِّر عن حالتها، لتتلقى الكثير من التعليقات ردًّا على ما كتبت، ولكن تعليق تلك الغريبة هو ما لَفتَ نظرها.

كانت تدعوها إلى أن تصبح قويةً، وأن تواصل حياتها، وأن تتمسَّك بها ولا تضيع لحظة منها. أخبرتها أن الحياة ثمينةٌ ولا شيء يستحقُّ أن يجعلها تضيعها هباءً، حزنًا على أشياء لا تستحقُّ، أو أشخاص لا يستحقون. أخبرتها أن تجعل لحياتها قيمة. سألتها حينها في يأسٍ: كيف لها أن تكون قوية بعد ما حدث لها؟ وكيف لها أن تُعطي قيمة لحياتها؟!

فأجابتها الغريبة: إن الحياة مليئة بالعَثرات والانتكاسات، فما لها إلا أن تنهض من كَبْوتها، وأن تنفض الغُبار من عليها، وتواصل بابتسامةٍ على وجهها، حتى وإن كانت مُصطنعة، فسيأتي يوم تتحوَّل إلى ابتسامةٍ حقيقية نابعةٍ من القلب، ما دامت لم تستسلم للحُزن واليأس، ولم تدعهما يأكلان قلبها، فكثيرًا ما يتحوَّل الزيف إلى حقيقة، والحُلم إلى واقع، إذا ما لبثنا نغذِّيهما بالأمل والعزيمة، فَلْتتظاهري حتى تتمكني.

أمَّا عن قيمة الحياة فَلْتحاولي أن تساعدي الآخرين، أو أن تفعلي شيئًا مفيدًا للمجتمع.. فلتّحدثي فارقًا. لا ترحلي من الحياة دون أن تتركي علامةً بها ولو كان شيئًا بسيطًا.

- الكلام سهلٌ والفِعل صعب؛ فالذي يده بالماء ليس كمثل الذي يده في النار. أنتِ لا تشعرين بألمي.

- لستِ الوحيدة المبتلاة، ولستِ الوحيدة التي تعاني، فهناك مَن يعانون أكثر منكِ. سوف تنسين بمرور الوقت. ولكن هناك غيركِ مَن لن يستطيعوا أبدًا تجاوز مِحنهم، ومع ذلك فهم يحاولون وراضون وقانعون.

- أنتِ لا تعرفين معاناتي حتى تتحدثي معي هكذا، وتُقللي منها؟

- تعليقكِ على هذا الفيديو أوضحَ كل شيءٍ، فأنتِ تعانين من خيانة صديقة.

- الأمر لا يتوقَّف على هذا فقط.

- لا أريد أن أعرف أكثر، ولكنْ أريد شيئًا آخر منكِ.

- مني أنا؟! ما هو؟!

- وعد.

- وعد؟! أيُّ وعد؟!

- عِديني بأنكِ ستنسين وستواصلين حياتكِ كما يجب.. ستتغلبين على ألمكِ وستنتصرين. لا تنهزمي فتصبح

الهزيمة هذه المرَّة أكبر وأشد وطأةً؛ لأنها هزيمة أمام النفس.

ـ لا أستطيع أن أعدكِ، فما حدث لي كان صعبًا وفوق قُدرة احتمالي. فكيف أنسى بهذه السهولة والبساطة؟!

ـ فلتتوقفي عن ذِكر ما حدث وتذكُّره. إذا ما دأبتِ على تذكُّره فلن تنسي. فَلْتملئي وقتكِ ولا تدعي فراغًا يذكِّركِ. فلتفعلي أشياء تُحبينها وتبرعين بها.

ـ أحبُّ الكتابة، ولكني توقفتُ عنها منذ زمنٍ.

ـ فَلْتعودي إذن لها مرةً أخرى، ولتكتبي..

ـ حسنًا، سوف أحاول.

ـ كلَّا، بل عِديني بأنكِ ستفعلين ولن تقومي بالمحاولة فقط. ستقاومين كل يأسٍ وكل شعورٍ بالهزيمة، وستكتبين.

ـ أعدكِ بأنني سوف أكتب مرةً أخرى، بل أعدكِ بأنني سوف أكتب وأنشر. سوف أدع العالَم يقرأ ما أكتب.

ـ بالتوفيق إذًا.

- مهلًا، نحن لم نتعرَّف على بعضنا. أنتِ تعرفين اسمي، وأنا لا أعرف اسمكِ، فاسمكِ هنا غريبة في الحياة.

يُمكننا أن نصبح صديقتين ونتبادل دائمًا الرسائل على الإيميل أو الفيسبوك، وربَّما على الواتس أيضًا.

- لا داعي لكلِّ هذا.

- لِمَ؟!

- ألم تخذلكِ صديقةٌ وتخُنكِ؟! كما أن الحديث مع الغُرباء أحيانًا يكون أكثر راحة وصدقًا وصراحة من الحديث مع الأقرباء. فلتدعينا كما نحن لنكون أكثر صدقًا مع بعضنا.

- ولكنْ إذا أردتُ أن أتواصل معكِ مرةً أخرى، فكيف؟

- هنا على هذا الفيديو، وعلى هذه المحادثة، ولكنْ لا تفعلي هذا إلا بعد أن تكتبي وتنتهي ممَّا كتبتِ.

- حسنًا.

- فَلْتتذكري دائمًا.. أكبر هزيمة هي التي تحدث أمام النفس، غير هذا فهي مجرد وقعات لنُصبح أقوى.

- حسنًا.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

كانت تلك هي المحادثة والوعد الذي غيَّر حياتها، وجعلها تنظر لها من منظورٍ آخر. كانت كلما تألمتْ أو بكتْ، أو كلما حاولت ذاكرتُها جرَّها إلى ذكرياتها.. تذكَّرت حديث تلك الغريبة.. تذكرت مقولتها بألَّا تنهزم أمام نفسها. كانت كلما أُحبطت وبدأ اليأس يتسلل إلى قلبها ليجعلها تُلقي بقلمها جانبًا، تذكرت الوعد الذي قطعته على نفسها لها.. لتلك الغريبة التي أخذت على عاتقها الوقوف بجانبها، دون أن تعرفها، ودون أن يكون لها أيُّ مصلحة خفيةٍ قد تكون غابت عنها، وهي التي رفضت أن تعرف أي شيءٍ عنها، أو أن تتواصلِ معها بأيِّ طريقة أخرى، فقد أرادت أن تبقى غريبة بالنسبة لها.

كانت لها تلك الغريبة أفضل من تلك الصديقة التي باعت وخانت دون أيِّ إحساس بذنبٍ أو تأنيب ضميرٍ. كانت صديقتها التي أمنت جانبها واستأمنتها على أسرارها وحياتها.. هي مَن هدمتها وبعثرتها، وكان الوعد لتلك الغريبة هو ما ساعدها وبناها لتقف على قدميها مرةً أخرى، وتواصل حياتها. باتت مُصممةً الآن على إحداث فارقٍ في الحياة.

سوف تكتب وستنشر. ستوصِّل تجاربها وأفكارها إلى الآخرين، فلربما تقع في يد شخصٍ ما هو في أمسِّ الحاجة للمساعدة، كما وقع تعليقها في يد مَن ساعدتها ووقفت بجانبها واستطاعت أن تغيِّر تفكيرها.. فقط بكلمات بسيطةٍ، ولكنها كانت نابعةً من القلب فاخترقت القلب مباشرةً كسهم مارق.

وها هي الآن وهي تضع نُقطة النهاية في أول أعمالها الأدبية، متشوقةً بشدةٍ لأن تُخبر تلك الغريبة بأنها وفَّت بوعدها لها، وأنها كتبت وانتهت وسوف تنشر.. لتخبرها بأنه مع كل حرف كانت تضعُه.. وكل كلمة كانت تكتبها.. كانت تُعالج نفسها بنفسها، فكانت رُوحها تشفى مع كل حرفٍ يلفظه القلم.

لا، لم تكن تلفظ حروفًا فقط، بل كانت تلفظ آلامًا وانكسارًا وهزيمة شعرت بها بعد الخيانة.

مع كل جملةٍ كانت تُبنى.. كانت تبني شيئًا جديدًا في شخصيتها وفي ثقتها بنفسها.. باتت بعد أن انتهت شخصًا جديدًا بتفكير جديد ورؤية جديدة في الحياة. كانت الغريبة محقَّة.. هي لم تنهزم أبدًا، بل كانت مجرد وقعة صغيرة نهضت بعدها أقوى وأجمل.

هي الآن سعيدة وفخورة بنفسها؛ فقد تصدَّت لحربها الشعواء مع نفسها.. تلك الحرب التي إذا انهزمت فيها كانت ستكلِّفها الكثير والكثير، ولكن لا.. لقد انتصرت على نفسها لتقوِّمها وتصنع منها نفسًا جديدة أقوى وأشجع.. مستعدة دائمًا أن تواجه الحياة بمعاركها وأسلحتها مهما كانت. لم تنهزم أمام نفسها. لم ترفع الراية البيضاء، وهذا يكفيها الآن لتعرف مدى قوة نفسها. هي لم تخسر أبدًا، بل على العكس تمامًا.. لقد كسبت، وكسبت الكثير، لقد انتصرت على صديقة خائنة.. لقد أضحت أديبة، وستصبح يومًا ما مشهورة. لقد أوفت بوعدها لغريبةٍ لا تعرفها، فأصبحت أفضل من صديقةٍ عَرفتها يومًا، ولكنها خانت وعدها معها.. وعد الصداقة، وكسبت نفسها واستعادتها مرةً أخرى. هي الرابحة في كلِّ هذا بالتأكيد.

والآن، سوف تعود لذلك الفيديو وتلك المحادثة، لتُخبر تلك الغريبة بانتصارها الكبير.بعثتْ لها رسالةً على ذلك الفيديو وانتظرت الردَّ. أخبرتها فيها بأنها وفَّت بالوعد، وتغلَّبت على يأسها وحزنها وكتبت.. وها هي على أعتاب النشر. أخبرتها بأن أول كتابٍ ستُهديه لها، لتلك الفتاة التي عرفتها مصادفةً في لحظة يأسٍ.. تلك الفتاة التي انتشلتها من القاع. ستُخبر الجميع كم هي ممتنةٌ لها، وكيف أن حديثها معها قد أنقذها.

انتظرت ساعاتٍ امتدت لأيام وأيامٍ، ولم تتلقَّ جوابًا على رسالتها، وشعرت بالقلق الشديد عليها، وأخذت تضع السيناريوهات المحتمَلة تبريرًا لعدم ردِّها، فأخبرت نفسها مرةً بأنها ربما مشغولة بأشياء أخرى؛ فهي لن تكون متفرغة دائمًا للردِّ على غريبة لا تعرفها.. ألا يكفي أنها مدَّت لها يد العون مرة؟ فلماذا يجب عليها أن تفعل كلَّ مرة؟! ولكنها نحَّت هذا الخاطر جانبًا وهي تحدث نفسها وتقول: كلَّا.. مَن مدت يد العون مرةً، لا بد أن تكون ذات شخصيةٍ كريمة معطاءة، فلن تبخل على أحد بجزءٍ صغير من وقتها.

ثم أخبرت نفسها مرةً أخرى بأن هاتفها ربما يكون معطلًا، فلم تستطع استلام رسالتها ولم ترها أصلًا. وخطر لها مرةً أخرى بأنها ربما تكون مريضة.. وهنا توقفتْ عن التفكير، وأخذت نَفسًا عميقًا وهي تقول لنفسها: كلا.. كلا، لا تفكري هكذا، لا تستجلبي الحظَّ السيئ فيمن أحسنت إليكِ وساعدتكِ. لا تكوني سيئة الظنون.. ظلَّت هكذا لفترة من الوقت، تراقب الإشعارات في هاتفها، حتى استسلمت تمامًا لهذا السكون، وتوقَّفت بداخلها الظنون والتبريرات، وواصلت حياتها ذات الرؤية الجديدة بأملٍ وتفاؤلٍ، تملؤها العزيمة والتصميم.

وذات يومٍ فتحت هاتفها، فوجدت إشعارًا ينبئُها بوصول رسالةٌ على اليوتيوب.. فتحتها لتجدها منها، فرحت كثيرًا وأخذت تقرؤها.. كان مكتوبًا فيها: أنا سعيدة جدًّا بالتقدم الذي أحرزتِه، وسعيدة أنكِ حافظتِ على وعدكِ.. ولتعلمي بأنكِ أنتِ مَن ساعدتِني ولستُ أنا مَن ساعدكِ.. أتمنى لكِ التوفيق.

كانت رسالةً مقتضبة ولكنها أثارت فضولها، فأخذت تقرؤها مرارًا وتكراراً وهي متعجبة، وهي تفكِّر في كلماتها الغريبة مثل صاحبتها، وتسأل نفسها: كيف ساعدَتْها وهي التي لم تنطق معها بكلمةٍ، بل على النقيض هي مَن قالت ونصحت، وقد أفلحت، وأمام رسالتها تلك قرَّرت أن تبعث لها برسالةٍ أخرى تستفسر فيها عن قَصدها وما تعنيه.

وتأخَّر الردُّ هذه المرة أيضًا، وهي تنتظر والفضول يأكلها كأكل النار في الهشيم، وأخيرًا جاءها الردُّ ولم يكن مقتضبًا كالمرة السابقة، قائلة: حينما كتبتِ ذلك التعليق على ذلك الفيديو ورأيتُه أنا، كنتُ أمرُّ مثلك بمرحلة يأسٍ، وكنتُ على وشكِ الاستسلام، فبعثكِ الله وكتبتِ تعليقكِ ورددتُ عليكِ، أو بالأحرى رددتُ على نفسي التي كانت تحثُّني على الاستسلام والقنوط. في الحقيقة لم أكن أحدثكِ بل كنتُ أحدِّثها.

كنت أقاومها وأذكِّرها بعدم التخلي عن الحياة. كنتُ في أشد الحاجة لأتحدَّث بصوت عالٍ إلى نفسي.. لأنصحها وأقوِّمها، وجئتِ أنتِ فجعلتِني أتحدث وأبوح وأصرِّح. جعلتِني أصرخ لها بألَّا تستسلم ولا تنهزم. وعندما بعثتِ لي تقولين إنكِ نجحتِ وانتصرتِ على نفسكِ.. فرحتُ كثيرًا؛ لأنكِ أعطيتِ قيمة لحياتي قبل الرحيل. كنتِ أنتِ الفارق الذي صنعتُ.

- هل تمت خيانتكِ أنتِ أيضًا؟

- نعم، ولكن ليس من صديقةٍ مثلما حدث معكِ، فالخيانة التي تعرضتُ لها أكبر وأقسى.

- هل لي أن أسأل ممَّن؟

- من جَسدي.. من صِحتي.. من الحياة.. وتلك الخيانة لا يُمكن الانتصار عليها أو هزيمتها، ولكننا نقاوم لنطيل الأمد قليلًا فقط لا غير.

- أنتِ مريضة! ممَّ تعانين؟

- لا تسأليني أكثر من هذا، فلم أسألكِ عن سبب خيانتكِ أو كيف حدثت.. فدعينا ننتهي هنا، ولنكون غريبتين جمعتهما الحياة.. فقط لنساعد بعضنا، ولتظلي وفيَّة لوعدكِ لي (لا تنهزمي).

- انتظري، دعيني أساعدكِ.. أخبريني ما خطبكِ؟ فربما استطعتُ مساعدتكِ..

ولكنها لم تتلقَّ إجابة على سؤالها أبدًا، ليظلَّا غريبتين لا يعرفان بعضهما، ولا يربطهما ببعضهما سوى وعدٍ غريبٍ من نوعه.. هو وعد غريبة.

قَهـــــرٌ

وضعَتْ رأسها على الوسادة، وتدثَّرت بغطائها، ودمعتها على خدِّها الذي بدأت تغزوه التجاعيد من جرَّاء ما احتمل من دموع تخترق مسامه الرقيقة، وذلك على الرغم من أنها في عَقدها الرابع. ظلَّت فترةً هكذا وهي تبكي في صمت، فقد عرفت الدموع مجراها على خدِّها ومُنتهاها على وسادتها، بقلب يملؤه الحُزن والقهر، وعقل مستسلم توقَّف عن البحث عن حل. كانت قد اعتادت على هذا الوضع وهذه النومة، فكان البُكاء الصامت هو طقسها الليلي، والدموع أدواته، والكبت وَقوده.

رفعتْ رأسها قليلًا من على الوسادة ولفَّته إلى الخلف، وألقتْ بنظرةٍ سريعةٍ عليه، فوجدتْه مُستلقيًا إلى جانبها يغطُّ في نوم عميق هانئٍ دون أي إحساسٍ أو شعور بالذنب، وهو الجاني.. المجني عليه من وجهة نظره. وضعتْ رأسها على الوسادة مرةً أخرى وظلَّت تفكِّر في كل ما يحدث، حتى غزاها النوم دون أن تشعُر كعادتها دائمًا بعد يوم مُتعب. استيقظتْ صباحًا قبلَه وذهبت إلى دورة المياه وغسلتْ وجهها ووقفتْ قليلًا أمام المرآة تنظر إلى وجهها الذي يقطُر ماءً.

كان منتفخًا، وكانت عيناها حمراوين قليلًا، ولكنها لم تُلاحظ ذلك؛ فقد اعتادت عليه هكذا، فلم يكن شكله غريبًا عنها، ثم خرجتْ لتبدأ يومها المُعتاد بإيقاظ أبنائها الثلاثة ليذهبوا إلى المدرسة، ثم ذهبت إلى المطبخ لتحضّر للجميع طعام الإفطار، وطلبت من أحد أبنائها أن يوقظ والده ليستعدَّ للذهاب إلى عَمله.

جلس الجميع يأكلون في صمتٍ مُطبقٍ حتى انتهوا من تناول الفطور، ثم بدؤوا يستعدُّون للخروج، وأخذت هي تجمع الأطباق وهي تتوجس خيفةً، وبين الفينةِ والأخرى تلقي نظرةً على غُرفة النوم، وتدعو ربها أن يمرَّ اليوم بخيرٍ وسلام، ولكنْ هَيْهاتَ هَيْهاتَ؛ فقد حدث ما كانت تخافه وتخشاه، إذ فجأةً سمعت صوت زوجها يصرخ بالسُّبابِ من الحجرة، وقد أفزعها فانتفض جسدها كلَّه دفعةً واحدةً، وحاولت بَلْع ريقها، وقد بدأت في الارتعاد.

كان هذا الموقف يحدُث كثيرًا وبشكلٍ متكرر، فقد كانت أيامها العصيبة كثيرةً، وأيامها الهادئة قليلة، ومع ذلك فقد كانت في كلِّ مرة تسمع فيها صُراخه وسُبابه تخاف وتفزع وترتعد، فمَن هذا الذي يمكنه مواجهة الخوف بثباتٍ؟! ومَن هذا الذي يألفُه ويعتاده؟! خرج زوجها من الغُرفة وهو يمسك ساعةً

محطمة في يده ألقاها بوجهها وهو يصيح بصوتٍ عالٍ: ما هذا الذي فعلتِه؟! حطّمتِ ساعتي؟! ألا تعلمين ثَمن هذه الساعة؟!

فنظرتْ إلى الساعة المُلقاة على الأرض عند قدمها وقالت:

- ولكني لم أفعل.. لم أحطِّمها.

- بلى، فعلتِ، فمَن غيركِ قد فعل؟ لقد نسيتُ ارتداءها بالأمس، وأنتِ مَن قام بترتيب الدرج، بالتأكيد وقعتْ منكِ فتحطمتْ، أنا متأكدٌ من هذا.. فمَن غيركِ يجرؤ على فتح الدرج الخاص بي؟ ألا تعلمين أن لهذه الساعة ذكرى مُميزة لديَّ؟ هل تتعمدين إغضابى؟!

فأجابت بترددٍ وتصميم:

- ولكني لم أفعل.

- اخرسي، هل تتعمَّدين استفزازي أكثر أيتُها الغبية؟ أنتِ لا تَصلحين لشيءٍ، منذ عدةِ أيام حطمتِ هاتفي المحمول، والآن ساعتي!

فصمتَتْ والدموع تسيل من عينيها وهي تنظر إليه، بينما ارتدى هو حِذاءه وخرج مسرعًا وهو يضرب الباب خلفه بعنفٍ جعلها تنتفض.

ظلَّت لبرهةٍ واقفةً مكانَها لا تعرفُ ماذا تفعل، ثم ما لبثتْ أن جلست على كرسيٍّ وهي تنظر حولها في المنزل الذي أضحى فارغًا هادئًا.

كانت لا تعي ما يحدث.. كانت في الفترة الأخيرة تنسى أشياء كثيرةً وأحداثًا كثيرةً، أو هكذا هُيئ لها. لم تكن واثقةً من شيءٍ.. لم تكن واثقةً من جمال شَكلها.. لم تكن واثقةً من كلامها، لم تكن واثقةً من أفعالِها، لم تكن واثقةً مما تسمع أو ترى.. كانت فاقدةً للثقة في نفسها، مُرتابةً في كل شيءٍ ومن كلِّ شيء، ولا تعلم كيف أو متى أضحتْ هذه الشخصيةَ الضعيفة الهشَّةَ المُرتابة، بعد أن كانت القويةَ الحازمة الجميلة. لا تعلم كيف مرَّت عليها الأيام لتحوِّلها إلى شخص لا تعرفه.

كرهت النظر في المرآة لأنها لا ترى نفسها التي عرفت، بل شخصًا آخر لا تعرفه، فقط الملامح متشابهة، أمَّا الشخصية فلا. باتت تائهةً عن نفسها.. أضحت كسفينة تائهة في بحرٍ هائج، لا تجد برَّ أمان، ولا تعرف لها مَرسى.

أصبحت تنتظر في أيامها الأسوأ، غادرَها الأمل والتفاؤل، ليعشِّش مكانهما اليأس والإحباط. باتت تنتظر مرور الأيام سريعًا ولا تعرف لِمَ، وهي التي لا تنتظر شيئًا، ولا تعرف إلى أين تأخذها وأين ستحطُّ

بها.. فقط ترجوها المرور دون توقُّف ولو للحظةٍ واحدة لتلتقط أنفاسها وتستجمع قواها.

تذكَّرت أيامها الجميلة قبل زواجها، حينما كانت أحلامها تحلّق لتُلامس عنان السماء، ولم تكن تعلم ما يخبّئ لها القدَر حينما كانت بكلّ سذاجة تحلُم بذلك الفارس على الحصان الأبيض، وجاء الفارس حقًّا وهو يحمل سيفه.. ولكنْ ليوجهه نحوها، وهنا انفجرٍ ذلك الكَبْت على هيئة دموع غزيرةٍ تتساقط مصحوبة بصوت بُكاء عالٍ، كلُّ دمعة منها تحمل معها قَهْر سنوات مضت في عذاب مع فارسها المُنتظر. تذكَّرت كل إهاناته لها وتقليله منها، كان يحبُّ بساطتها قبل الزواج.. أصبح الآن بعد الزواج يراها سذاجة وبلاهة.

لقد أضحى كلُّ شيءٍ جذبه إليها قبل الزواج محلَّ سخرية وتشكيك ولوم بعد الزواج، ولا تعلم ما الذي تغيَّر فيها أو ما الذي غيَّره هكذا، أم أنها هي مَن لم تعرفه جيدًا منذ البداية! تذكَّرت خيانته لها، ولومه لها على فِعله الفاحش، بقوله إنها هي مَن توقفتْ عن الاهتمام به وعن الاعتناء بنفسها، متناسيًا أنه هو مَن توقَّف عن الإحساس بها وعن معاملتها كامرأةٍ تحتاج لسماع كلماتٍ حلوة من زوجها يُشعرها فيها بأنوثتها واهتمامه بها.

كان يتفنَّن في هَدمها والانتقاص منها ومن قَدرها، ولم تكن تجد مبررًا لذلك.

ظلَّت هكذا لفترة طويلة من الوقت، ثم نهضتْ وتوجهت إلى دورة المياه لتغسل وجهها، ومنه إلى غُرفة أبنائها الفارغة، ثم جلست على طرف أحد الأسرَّة الصغيرة، وأمسكت بإطارٍ يجمع صورة أبنائها الثلاثة وهم يضحكون، وأخذت تتأملها وهي تُطلق شهقات زفيرٍ قوية بين الفَيْنة والأخرى، وهي تقول لنفسها: لقد احتملتُ من أجلكم الكثير، وسأواصل ما أفعل.. كل ذلك من أجلكم يا أبنائي.. ثم وضعت الإطار مكانَه على الكومودو الصغير وهي تقول: "ربَّما بِتُّ الآن احتاج إلى طبيب".. ثم خرجت من الغُرفة لتباشر أعمالها اليومية المُعتادة.

ذهبت إلى غُرفتها لترتّبها بحرص شديد؛ خيفة أن تُحطم شيئًا أو تضع شيئًا في غير مكانه. وبعد الانتهاء منها وقفت تتأمَّلها بعين دقيقة فاحصة، وهي تتأكد أن كلَّ شيءٍ في وضعه الطبيعيِّ؛ مخافة أن تُخطئ أو ترتكب أيَّ مخالفات فيغضب زوجها، ليحوّل باقي يومها إلى جحيم، وهي التي ارتكبت الكثير من الأخطاء في الآونة الأخيرة أدَّت إلى غضبه الشديد منها وعليها.

خرجت من الغُرفة ولكنها عادت لها مرةً أخرى لتتفحصها بدقةٍ للمرة الثانية، ثم خرجت منها وهي متشككة مُرتابةً، وقضت باقي يومها وهي بين جَنَبات الغُرف والمطبخ، وبين الفَيْنَة والأخرى تجري على غرفتها لتتأكد من خُلوها من الأخطاء.

قضت اليوم كُله هكذا حتى مجيء أبنائها من المدرسة، ومجيء زوجها من العمل. وما إن دخل غُرفته حتى بدأ الرُّعب يدبُّ في قلبها، فبدأت تَسترِق السمع وتنظِر باتجاه الغرفة وهي متوجسةٌ خائفة.. كانت خائفةً من الأخطاء.. خائفة من الشّجار.. خائفة من زوجها. أضحت تعيش في خوفٍ وتوجُّس. أصبحت تكره وجوده في المنزل.. تكره رؤيته، وتكره سماع صوته. كان زوجها هو مرادف الخوف والعَذاب.

مرَّ اليوم بسلام ولم يحدث أيُّ شِجار آخر بينهما، ومرَّ اليوم الذي بعده ثم الذي يليه، وهي تدعو الله كلَّ صباح وقبل أن تنام ألَّا يتشاجر معها مرةً أخرى.. حتى جاء ذلك الصباح الذي سمعت صُراخه فيه وهو يقول لها: أيتها الغبية، لقد أحرقتِ قميصي.

فأجابته: كلَّا، لم أفعل.

فتوجَّه ناحيتها وهو يقول: مَن فَعل إذًا؟! ألستِ أنتِ مَن تقوم بكي الملابس؟ وألقى القميص في وجهها كعادته دائمًا عندما يغضب، حيث يبدأ بإلقاء الأشياء نحوها، فأمسكَتْه وهي متعجبةٌ بشدةٍ وتقول:

- نعم، لقد قُمت بكيِّه، ولكني لم أحرقه.. لم أفعل شيئًا!

- هل أنتِ حمقاء؟! مَن إذًا فَعل؟! أليس القميص في يدكِ، ألا ترين أنه محروق؟!

فنظرت إليه وقالت:

- نعم، ولكن..

- ولكن ماذا؟! هل تُريدين قيادتى إلى الجنون؟! لم أعُد أحتمل سخافاتكِ.

فتساقطت الدموع من عينيها، وأخذتْ تبكي وهي تنظر إلى القميص المحروق. لم تكن تتذكَّر أنها أحرقته أثناء كيِّه. نعم، تتذكَّر أنها بالأمس قد قامت بكيِّه، ولكن لا تتذكَّر حَرْقه.

خرج زوجها ذاهبًا إلى عمله، تاركًا إياها مع حيرتها، وعقلُها يكاد ينفجر من محاولات التذكُّر حتى أصابها الصداع، وباتت مقتنعة بأن هناك خطبًا ما قد

أصاب دماغها، وأنها في أشدِّ الحاجة إلى العلاج، حتى لا يأتي اليوم الذي تنسى فيه أبناءها.

ذهبت إلى دورة المياه وتوضأت، وارتدَتْ لباس الصلاة وصلَّت لله وهي تدعوه وتطلب المعونة منه، أن يُمدها بالقوة ويشفيها ويوضح لها حقائق الأمور.. وأخذت تبكي بشدةٍ وهي تستنجد به وحدَه في أن يعينها على حياتها. وبعد أن انتهت شعرت بالرَّاحة وبالسكينة تتخللها، ثم نهضت وبدأت في البحث على الإنترنت عن طبيبٍ تلجأ إليه ليشخِّص حالتها، ويصف لها دواءً لحالة النِّسيان التي تعاني منها.. وعندما وجدته قرَّرت الذَّهاب إليه في أسرع وقتٍ، وقضت باقي اليوم في إنجاز أعمالها المنزلية اليومية، حتى عودة الجميع إلى المنزل في آخر النهار.

وفي المساء توجَّهت إلى غُرفتها لتُخبر زوجها برغبتها في زيارة الطبيب فلم تجده، فبحثت عنه فوجدته في الشُّرفة يتحدث في هاتفه وقد ولَّى ظَهره إليها، فذهبت إليه، وعندما اقتربَتْ منه لم ينتبه إلى وجودها، فسمعته يتحدث إلى شخصٍ ما ويقول: لقد أحرقتُ القميص هذا الصباح ونسبتُ الفَعلة لها.. سوف أصيبُها بالجنون.. سأجعلها تذهب إلى مستشفى المجانين؛ فأقوم بتطليقها دون أيِّ حقوق، وسوف آخُذ

أبنائي منها، وأتزوج بكِ.. لا أريدها. لم أعُد أطيقها، فأنا أحبكِ أنتِ.

صُدمت من سَماع تلك الكلمات الجارحة، فوضعت يدها على فمها في محاولةٍ منها لكَتم صرخةٍ كادت أن تفلت من فمها غضبًا، ثم استدارت وعادت إلى غُرفتها وهي تلهث، وكعادتها أخذت في البُكاء، وهي لا تعرف ماذا تفعل أو ماذا تقول.

كان دائمًا ما يُسيء معاملتها حتى حوَّل حياتها إلى جحيم لا يُطاق، ولكنها لم تتوقع أو تتخيل أبدًا أن يصل به الأمر إلى فِعل هذا. هو يريد أن يقودها إلى الجنون.. يريدها أن تفقد عَقلها.

هو يفتعل كلَّ هذا وينسبه إليها، وهي صدَّقته وباتت تتهم نفسها بالنسيان والإهمال، وهي بريئةٌ لا ذنب لها فيما يحدث، ولا ناقة لها فيه ولا جَمل.

كيف هانت عليه؟! متى وصلَ بهما الأمر لهذه الدرجة؟! ماذا فعلتْ له لكي يكرهها لهذه الدرجة ويحبَّ غيرها؟! ما الذي قصَّرت فيه؟! لماذا تَغيَّر لهذه الدرجة وأصبح ظالمًا هكذا؟! كلُّ تلك الأسئلة أخذت تدور في عقلها ولا تجد لها إجابات سوى أنه وغدٌ خائن لا يستحقها ولا يستحق أبناءهما.. أبناؤهما هنا

كلمة السِّر.. ماذا تفعل معه وهناك أبناء بينهما؟ لا يُمكنها أن تحيا بدونهم. ماذا سيحدث لها ولهم إذا ما طلبت الطلاق؟! لا يُمكنها.. لا تستطيع. ستظلُّ هكذا. لا حلَّ آخر ولا مَفرَّ.

وهنا استجمعت قوَّتها ونهضت لغَسل وجهها، ثم ذهبت إلى المطبخ وشربت كوب ماءٍ، وبعد ذلك توجَّهت إلى حجرة أبنائها فوجدتهم يغطُّون في نوم عميق، فأخذت تتأمَّلهم وهي تحدِّث نفسها: فقط من أجلكم سأتحمَّل وسأصبر؛ لعل وعسى أن يَهديه الله في يومٍ ما فيعود إلى صوابه ورُشده. لن أهدم المنزل. لن أتخلَّى عنكم، سأظلُّ أقاوم وأقاوم لنظلَّ معًا.

أغلقت باب حُجرة أبنائها وذهبت إلى حُجرتها وفتحت الباب، لتجده نائمًا في سريرهما متدثرًا بالغِطاء، فدخلت وأغلقت البابِ وخلعت روبها ودخلت تحت الغِطاء بجانبه، متظاهرةً بأنها لم تسمع شيئًا أبدًا وكأنَّ شيئًا لم يحدث، غيرَ أنها مارست طَقسها المُعتاد من البُكاء الصامت.

ثمرةُ مانجو صَفراءُ

منزلان متجاوران بحدائق جميلةٍ مُرتبة، يفصل بينهما سورٌ أخضر قصير من الشَّجرِ المُهذب، لعائلتين مثاليتين متحابَّتين، عاشتا زمنًا متجاورتين.. لا يربطهما سوى الودِّ والحُب، كبر أبناؤهما معًا.. ذهبوا إلى المدرسة معًا، ولعبوا معًا في حديقتي منزليهما، واشتركوا في نفس النادي. أصبح جميعهم إخوةً ما عدا اثنين منهم تحوَّلا إلى حبيبين.. بنتٌ وولد نشآ معًا.. كبرا معًا، ونما حبُّهما بداخلهما. كان حُبًّا طاهرًا نقيًّا لازمهما دهرًا.

كانا دائمًا ما يتحدَّثان عبر السور الأخضر القصير.. الفاصل الوحيد بينهما، والحاجز الماديِّ الوهميِّ الذي تواعدا على اختراقه يومًا ليُصبحا -بدلًا من منزلين- منزلًا واحدًا وعائلة واحدة كبيرة متحابَّة. باركَ جميع أفراد العائلتين هذا الحُب، وحلَم الحبيبان بيوم الزَّواج الميمون.. حلَما بالفستان الأبيض والبدلة السوداء والفرح والموسيقى والرقص.

كان الصغار منهما يحلُمون بالملابس التي سيَرتدُونها، والموسيقى التي سيرقصون عليها، وأصحابهم الذين سيَدْعونهم، وكان الكبار منهما يُرتبون أين سيُقام الحفل، ومَن سيدْعون وكم العدد، وشكل بوفيه الطعام. كان الجميع سعداء.. يحلُمون

ويأملون، وكان الحلم قريبًا منهم، فها هما الابنان قد كبرا، وها هي الفرحة باتت على أبواب الأمل. كان كلُّ شيءٍ يسير كما هو مخططٌ له، والأيام تمرُّ بسلام، لا يعكِّر صفوها شيءٌ ولا أحد.

كانت العائلتان معروفتين في المنطقة كُلها بحُبهما لبعضهما وترابطهما الأخوي، وكانتا محلَّ إعجاب من البعض، ومحلَّ حسد من البعض الآخر؛ جيرانٌ مشاكسون لا يعرفون أبسط حقوق الجيرة.

كانتا عائلتين لا تربطهما أواصر قرابةٍ أو دمٍ، ولكنْ يربطهما ودٌّ وحُب وأخلاق حميدة، حتى جاء ذلك اليوم.. حينما وقف طفلٌ صغير يبلغ من العُمر تسع سنوات بجانب السور في منزله؛ ليقطِف ثمرة مانجو صفراء اللون من إحدى فروع شجرة المانجو الكائنة في حديقة الجيران، والتي تُطل ببعض فروعها في حديقتهم.. وبدأ في أَكْلها، حينها رأته ربَّة منزل الجيران من الشباك، فخرجت إلى الحديقة وتوجهت ناحيته وحدَّثته عبر السور الأخضر القصير وهي تقول له بهدوءٍ مُعاتبة: ألم يكن يجب عليك أن تستأذن قبل أن تقطِف تلك الثمرة وتأكلها؟!

فنظر إليها وقال وقد تلوَّث فمه بالمانجو:

- كانت ثمرةً مطلةً في حديقتنا.

- ولو.. كان ينبغي أن تستأذن منَّا، فهذا خطأٌ.. إنها تُعتبر سرقة.

فنظر إليها الطفل الصغير في صمتٍ والثمرةُ في يديه وهو لا يعرف بما يُجيبها.. حينها سمعتها والدتُه فتوجَّهت ناحيتهما وقالت غاضبةً مستنكرةً:

- ماذا؟! سرقة؟! هل تتَّهمين ابني بالسرقة؟! كيف لكِ أن تقولي على ابني إنه لصٌّ؟!

- أرجوكِ، فلتخفضي صوتكِ.

- لن أفعل.. قلتِ عن ابني إنه لصٌّ وتريدينني أن أخفض صوتي!

- لم أقل عنه لصٌّ.

- بل قلتِ، وقد سمعتكِ.

- كنتُ أنصحه لا أكثر؛ حتى لا يكرِّر فَعلته تلك مرةً أخرى.

- عن أي فَعلة تتحدَّثين؟ إنها مجرَّد ثمرة مانجو لا أكثر.

وهنا سَمِعهما زوجاهما وأبناؤهما داخل المنزلين؛ فخَرَجا ليستطلعا ما يحدث وهم يتساءلون، فنظرت أم الطفل إلى زوجها وقالت له بغضبٍ واستنكار وبصوتٍ

عالٍ: - لقد قالت على ابننا إنه لصٌّ.. هل تصدِّق هذا؟! ابننا لصٌّ!

فقال زوجها مستنكرًا وهو ينظر إلى الجارة وزوجها:

- ماذا؟!

فأجابته زوجتُه:

- نعم، كما أقول لكَ. لقد اتهمَتْه بسرقة ثمرة مانجو.

فنظر الزَّوج إلى جارته وسألها:

- هل هذا صحيحٌ؟ هل نعتِّ ابني باللصِّ؟ هل اتهمتِه بالسرقة؟!

فأجابت الجارة مرتبكةً وجميع العيون عليها:

- حسنًا.. كلا، أقصد.. ليس بالضَّبط هذا ما حدث.

فصرخت فيها الزَّوجة وقالت:

- ماذا؟! هل أنا أكذب؟! هل أنا كاذبةٌ؟!

ثم ضحكت في سخريةٍ وأكملت: ابني لصٌّ وأنا كاذبة. هذا ما كان ينقُصنا.. ثم وجَّهت الكلام إلى ابنها الذي كان لا يزال يمسك بثمرة المانجو وهي تقول: حسنًا، أنا كاذبة، فلنسأل إذًا الطفل الصغير لنكتشف مَن منا الكاذبة، وتوجَّهت إلى ابنها الصغير وأمسكته من كتفيه وهي تسأله:

- ألم تقل لكَ العمةُ إن أَخْذك لثمرة المانجو هو سرقة؟

فنظر الطفل الصغير إلى أُمه ثم إلى الجميع وهو خائفٌ قلِق، فحثَّه والده على الإجابة وهو يقول له مطمئنًا: قل ولا تخف. لن يفعل لكَ أحد شيئًا، أنا هنا بجانبكَ.

فقال الطفل الصغير بصوتٍ خائفٍ مُرتبك:

- نعم، قالت.

- أرأيتم جميعًا؟ هل ابني يكذب هو الآخَر؟ على آخِر الزمن.. نحن لصوصٌ.

فاغتاظ الأبُ وصرخ في الجارة وقال: كيف تجرؤين على قول ذلك؟!

فأوشكت الجارة على الإجابة، حينما قاطعها زوجها صارخًا فيه بغضبٍ: كيف تجرؤ على الصُّراخ في زوجتي؟!

فأجابه والد الطفل:

- لا تتهرَّب من الموضوع؛ فزوجتكَ نعتتنا باللصوص.

- أنا لا أتهرَّب من شيءٍ، ولكن لا ترفع صوتكَ على زوجتي، فمَن تكون لتفعل هذا؟! هل جُننتَ؟!

فتدخلت والدة الطفل قائلةً بصوتٍ مرتفع: في البداية لصوصٌ، ثم كاذبون، ثم مجانين.. وماذا بعد هذا أيُّها الناس الأكابر؟! أنا أندم على معرفتكم تلك، بل من الواضح أننا لم نكن نعرفكم جيدًا طوال هذه السنوات.

فأجابتها الجارة: بل نحن مَن لا يشرِّفنا أن نعرف أناسًا مثلكم.

فاغتاظت والدة الطفل وردَّت عليها قائلةً: مثلنا؟! ماذا تعنين بمثلنا أيَّتها الحمقاء؟!

فردَّ عليها زوج الجارة بغضبٍ وبنفس الصوتِ المُرتفع الذي كان السِّمة المميزة في الشِّجار بينهما: مَن الحمقاء أيَّتها الغبية؟! فَلْتحترمي نفسكِ، ولتلزمي حدَّكِ.

فغضب والد الطفل بشدةٍ وصرخ فيه قائلًا: أيُّها الحقير، كيف تنعتُ زوجتي بغير المحترمة؟! وأخذ ما تبقَّى من ثمرة المانجو من يد ابنه وقَذَفه بها وهو يقول: خُذ ثمرتكم الثمينة.

جاءت الثمرة في وجه الجار الذي صَرخ فيه بغضبٍ شديدٍ: ما هذا الذي فعلتَه؟! فلتخرج إليَّ في الشارع أيُّها الوقح.. فخرج الجميع إلى الشارع يتوعَّد بعضهم بعضًا، ليتحوَّل الشِّجار من التلاسُن إلى تلاحم اشترك فيه الجميع كبارًا وصغارًا.. وهم يُطلقون العنان لأيديهم وأرجلهم لتفعل ما تشاءُ وتصيب ما تشاءُ، وقد تجمَّع الجيران والمارَّة على إثر الصوت المرتفع والضرب المتبادل، وهمَّ الجميع بالاشتراك في فضِّ هذا الاشتباك الكبير بين عائلتين كان يُضرب بهما المثل في الجيرة التي ربطتهما بالحُب والودِّ والأخلاق الحسنة، والجميع يدعونهم إلى الهدوء وتحكيم العقل وطَرْد الشيطان الذي دخل بينهما ليريهما سوءاتهما، ولكن هَيْهات هَيْهات؛ فقد ضاع صوت العقل وتحكَّم الغضب.

تمَّ فضُّ الاشتباك بعد وقتٍ ليس بالقصير، وبعد تبادل الشتائم والتلاسن، وبعد العديد من الرَّكلات واللكمات التي تركت كدماتٍ زرقاء وحمراء على الوجوه والأذرع والأرجل، وأصبح ما حَدَث بين العائلتان مادةً لقاطني المنطقة كلها، يتسامرون بها لمدةٍ من الزمن وهم يتعجبون ممَّا حدث؛ فتارةً يتشفَّون ويشمتون بهما، وتارةً أخرى يستشفُّون الدروس المستفادة والعبر؛ بأنه لا أمان لأحدٍ في هذا الزمن المتقلِّب، وأنه مهما كانت درجة الحُب والودِّ.. ومهما بلغ كَرَم الأخلاق.. فإن لكلِّ فرد سوءاته ونكساته، وإنه لا توجد نفوسٌ صافية نقية هذه الأيام.. وتارةً يقولون إنها سحابة صيفٍ وسوف تمرُّ وترجع العائلتان أصدقاء متحابين مثلما كانتا دائمًا، فسوف تهدأ النفوس وتصفى، ويعرف كلٌّ منهما خطأه، فيُحكِّمان العقل ويُنحيان الغضب جانبًا؛ فلن يسمحا بصداقةٍ سنين طويلةٍ أن تُضيعها ساعة شيطان قصيرة، لتبدِّل الحال وتغيره، وهما مَن كان يُضرب بهما المَثل في حُسن الجيرة والجوار.

ظلَّت القطيعة بين المنزلين لفترةٍ من الوقت، وقد توسَّط بعض الجيران والمعارف للصُّلح بينهما وهم يتساءلون عن سبب كل هذا الشِّجار وكيف بدأ، فكان هناك لغط كثيرٌ وأقاويل مختلفة، حيث كانت كلتا

العائلتين تلقيان باللوم على الطَّرف الآخر، ولم يدرِ أحد أن البداية كانت من ثمرة مانجو صفراء صغيرة.. واختلف الناس كثيرًا عن سبب الشِّجار، فتارةً يقولون: "شقاوة أطفال"، وتارةً يقولون: "بل كيد نساء"، وتارةً يقولون: "بل اختلافٌ على أموال"، وتارةً يقولون: "بل حسد أصابهما"، وتارةً يقولون: "بل خطأ شباب".. وكلٌّ فريق يُدلي بدلوه، ولم يصدِّق أحدٌ أنها ثمرة مانجو صفراء ساحرة، استطاعت بكلِّ حنكةٍ أن تقطع أواصر الودِّ وتهدم جسور المحبَّة بين الطرفين، لتحل مكانهما النِّزاع والخصام.

فقد استطاعت ثمرة المانجو أن تفعل ما لم يستطع أحدٌ أبدًا فِعله أو توقُّعه يومًا ما، فكانت كالساحر الأخرس الشِّرير الذي ألقى بتعويذته على المنزلين؛ ليقلب الحال ويغيِّره.. ومع تداخُل أطراف كثيرة لحلِّ الشِّجار وفض الإشكال، زاد اللغط والكلام، فبدأ الشِّجار يزيد بدلًا من أن يهدأ؛ فأحيانًا كان يصل كلامٌ خاطئ إلى كليهما ليزيد من حدَّته، فيبدأ التلاسُن مرةً أخرى، وكانت كل عائلةٍ منهما تتفنَّن في الكيد للأخرى.. كل عائلةٍ تُخبر الآخرين كيف أنها احتملت سخافات الأخرى ودناءتها لأعوامٍ عديدة حتى فاض الكَيْل، ولم تعُد هناك قدرةٌ على الاحتمال أكثر.. بدأتا تسرُدان المواقف والحكايات التي حدثت بينهما، وكيف

تغاضت كل منهما عن الأخرى؛ إعمالًا لمقولة: "إن النبيَّ أوصى على سابع جار"، ولكن من الآن، لا سابع ولا عاشر جار.. فما حَدَث كان يجب أن يحدث منذُ زمنٍ مضى.. وظلتا هكذا تتراشقان الاتهامات والشتائم، حتى فوجئ الجميع يومًا ما بأن السور الأخضر القصير يُزال ليُبنى مكانه سورٌ آخر خرسانيٌّ -من طوبٍ وزلط وإسمنت- أطول منه وأسمَكُ منه ليكون الفاصلَ بينهما؛ فلا يرى بعضهم بعضًا، ولا يتحدثون مع بعضهم بعضًا.

لم يكن مجرَّد سور ليحفظ الحدود ويحدد الأرض، وإنما كان سورًا ليحفظ الشّجار ويؤجِّجه.. ليجعل النسيان صعبًا والصلح مستحيلًا.

كان سورًا يحثُّ على القطيعة، ليفرِّق الأحبة ويكسر القلوب ويشتت الأمانى ويبعثر الأحلام وينهي جيرة استمرت لسنوات طويلة.

كان سورًا أصمَّ ولكنه يحمل الكثير من المعاني والرسائل التي كان عُنوانها: "دوامُ الحال من المُحال".

الفهرس

إهداء.....١

سوبر بابا.....٥

لوتو.....١٩

لا أحدَ يَنتصرُ على الحَياةِ.....٣٠

لعب عِيال.....٤٤

كلُّ الطُّرقِ مفتوحةٌ.....٥٥

وَعْدُ غَريبَة.....٧٠

قَهـــرٌ.....٨٣

ثمرةُ مانجو صَفراءُ.....٩٥